

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



تجليد صالح الدقر
٢٢٩٧٧ تلفون

808.3

A234KA

على ادهم

الخطايا السبع

76991



مكتبة طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

Car Feb. 1951

مقدمة

يفرق بعض النقاد بين أدب العقل والتفكير وأدب الخيال والاحساس وبين الكاتب الذى يتحرى أن يعلم ويهذب والفنان الذى لا يقصد إلى أكثر من إثارة الشعور وإيقاظ الاحساس ، وهذا التقسيم صحيح فى جملته ولكننا فى كثير من الأحيان لا نستطيع أن نقيم الحد الفاصل بين أدب التعليم والتلقين وأدب المتعة الخالصة والفن النقي

ومن طبيعة الخيال أنه لا يتناول بريشته الخالقة إلا كل ما له فردية متميزة من الحقائق ، وأمثال هذه الحقائق الفردية قد تكون موضوع الكاتب الذى لم يحفل نصيبه من الفن مثل مسجل اليوميات أو كاتب الحوليات ، الذى يثبت ما وقع من الحوادث متوخياً الدقة والأمانة ، ولكن المؤرخ الفنان يصنع شيئاً غير ذلك ، فهو يتناول نفس هذه الحقائق الفردية ولكن بأسلوب آخر ، فهو ينسقها تنسيقاً خاصاً ، ويعايرها بميزانه ويؤكد أهميتها بعض تلك الحقائق ويسلط عليها ضوءاً قوياً ويقلل من أهمية البعض الآخر ، فعمله له قيمة علمية من ناحية تحقيق الحوادث وقرابتها بقيمة فنية من ناحية طريقة السرد وأسلوب العرض ، ومن طبيعة الأسلوب أنه ينم على الخيال ويتصل بالأدب وينتسب إلى الفن .

وأدب التفكير المحض قد لا تقوى النفوس على احتماله ، وأدب المتعة وحده ضرب من الترف ، وفي اعتقادي أن الأدب الحق هو الذي يوفق بين الطرفين ويجمع مزايا الخصلتين ، وآفة أدب التفكير أن الكاتب قد يعمن في الدعوة الى فكرة خاصة أو التبشير بمذهب معين ، وآفة الأدب الخالص أنه قد يستحيل ضرباً من اللهو ونوعاً من الزخرف والتوشية ، وخير الأدب عندي هو الأدب الذي تمتزج فيه الفكرة بالصورة امتزاج الروح بالجسد كما أن خير الكتب هو الكتاب الذي تتفق فيه فكرة الموضوع مع طريقة عرضه وهندسة بنائه

وقد استرشدت بهذه الفكرة في اختيار هذه القصص التي نقلتها من الآداب الأوروبية المختلفة إلى اللغة العربية ، ملتزماً بالأمانة والدقة جهد الطاقة في ذلك النقل ، فلم أتحر أدب المتعة وحده ولا أدب الفكرة وحده وإنما الأدب الذي يجمع الخصلتين ، وكل قصة منها لا تخلو من فكرة فلسفية أو وصف حقيقة نفسية ولكنها معروضة في الثوب الملائم لها ومصبوبة في قالبها الخاص بها وأرجو أن يظفر فيها القارئ بلبذة الفكر ومتعة الإحساس ما

على أروهم

الخطايا السبع

(للروائية السويدية القديمة سلمى لاجيرليف) [١٨٥٨ - ١٩٤٠]

أراد الشيطان أن يمكر براهب حكيم ، فالتف في عبادة فضفاضة ، ووضع على رأسه قبعة ضخمة مترهلة ، حتى لم يستطع أحد معرفته ، وأخذ سمته إلى الكاتدرائية ليرى الشيخ حيث يجلس في كرسى الاعتراف يتلقى التوابين .

قال هذا الماكر « أيها الأب الموقر ، أنا مزارع ابن مزارع ، استيقظ مع الشمس ولا أغفل عن الصلاة ، وبعدها أمضى عامة يومى كدًا في الحقول ، وأتبلغ بالخبز واللبن ، وعند ما أرغب في الاثناس بأصحابى أدعوهم لتناول الشهد والفاكهة ، وأنا أعول والدى ، وليس لى زوجة ، ولا ارب لى فى النساء ، وأثابر على الذهاب إلى الكنيسة ولا أحبس زكاة العشر عما أمتلكه ، وها قد سمعت اعترافى أيها الأب الموقر فهلا منحتنى الغفران » فأجابه الراهب « يا ولدى أنت أتق من رأيت ، وأنا أغفر لك بارتياح ، ولكن سأقص عليك ما حدث منذ زمن ليس بالبعيد فى نفس هذه الأنحاء ، وسيسرك ما أقصه عليك لأنك ستسمع عن أعمال صالحة تقنعك بأن الذين قاموا بها يعدون أشقياء واقعين فى الخطيئة إذا قيسوا بك » فقال له الشيطان « أيها الأب الموقر ! إنك تغرينى بالكبرياء والعجب ،

فأجابه الراهب « وقانى الله شر هذه الخطيئة الكبيرة ، عند ما تسمع ما سأقصه عليك ترجع عن هذا الرأى »

ثم قص عليه هذه القصة :

« الشريف الأصيل صاحب هذا الحصن القائم على قمة الجبل الواقع فى الناحية المقابلة من النهر عقد العزم على أن يزوج ابنته من رجل سرى قوى النفوذ يحبها حباً شديداً ، ولكن الفتاة كانت تعارض فى ذلك لأنها عاهدت غيره على الزواج .

فكتبت رسالة إلى من تحبه أخبرته فيها كيف أن أباهأ أرغمها على الزواج من رجل آخر ، وذكرت له أنها تودعه وتقدم له أطيب التحيات ، وترجوه أن يبقى على نفسه ولا يذهبها أسى ، لأنها لا تزال تحمل له فى مضمرة القلب كل إخلاص .

ولكن أباهأ أخذ الرسالة من الرسول ومزقها خفية .

واستقبلت الفتاة يوم عرسها منهلة الدمع ، ولكنها حبست دموعها فى الكنيسة ، ولو أن الحزن كان مرتسماً على معارف وجهها ، حتى بدت لناظرها كالمتحجرة ، وبكى كل من فى الكنيسة لأجلها . ولما رأى والدها ما فعله بها الحزن ، هاله عمله فدعاها إلى مخدعه عقب عودتها من الكنيسة وقال لها « لقد أسأت إليك يا عزيزتى » وركع أمامها برغم كبريائه ، واعترف بأنه ارتكب عملاً دنياً فى مصادرة رسالتها خشية أن يعلم حبيبها فيأتى يوم العرس فى جمع من أصحابه ويحملها بالقوة .

فقلت له « هذا يصح أن يكون عذرك ولكنك لا تدري ماذا سبب
من شقاء » .

وخرجت إلى المظلة

وجاء العريس ليستقبلها

« لماذا يا حبيبتي أرى على وجهك أمارات الحزن الشديد »
فأجابته « لأن لي حبيباً أقسمت ألا أتركه »

فقال لها « لا يحزنك أن صرت لي زوجة ! إن حبى لك من القوة
بحيث أنى لا أظن أن غيرى يستطيع إسعادك أكثر منى »

فكان جوابها الوحيد « كل المحبين يقولون ذلك »

ثم جمعت شجاعتهما وقالت لنفسها سأخبره فعسى الله أن يلين قلبه، وأفضت
إليه بأنها هي وحبيبها قد تعاهدا على أن ينتحرا المهجور منهما يوم عرس المهاجر
« ولذا فإن حبيبى سيقتل نفسه فى هذا اليوم » وبلغ منها الألم أشده ،
فجشت عند قدميه وقالت متوسلة « دعنى أذهب إليه قبل أن يقضى الأمر »
وكانت قوة حزنها مؤثرة إلى حد أن زوجها - وقد جال بفكره أنه
إذا تركها تذهب إلى من تحبه فإنه لا يراها ثانية - لم يتمالك نفسه عن أن
يقول لها « افعلى ما تستحسنين فعله »

فوقفت وشكرته وعيناها مغرورتان بالدموع ، ثم أخذت طريقها إلى
قاعة الوليمة لترى المدعوين وكانوا جالسين على مقاعدهم بازاء الموائد ينتظرون
الطعام ، وقد برح بهم السغب بعد الركوب مدة طويلة

وقالت لهم العروس « يا أصدقائي الأعزاء ، لا أكتف عنكم أني ذاهبة
بعد الاتفاق مع زوجي إلى لقاء حبيبي ، وهو يعتزم اليوم أن يقتل نفسه
لأنني حنثت بعهده ، وسأذهب إليه الآن وأخبره بأنني أرغمت على الزواج
من غيره ، ولا يدهشكم ذهابي بنفسي إليه لأن مثل هذه المهمة لا يؤتمن
عليها رسول ، ولا تكفي فيها الرسالة ، ورجائي إليكم الاتمسكوا عن الأكل
والشراب واللهو أثناء غيابي ، وسأعود إليكم بعد انقاز حياته »

فبكى جميع الحاضرين عند ما تحدثت عن حزنها وقلقها المساور ، وقالوا لها
« لا يحولنا الشراب ولا الأكل وأنت تعانين مثل هذا الحزن ، اذهبي
إليه وبعده عودتك إلينا نتناول الطعام » وتركوا الموائد

واجتازت العروس ساحة القلعة ، وحدث ضوضاء ولغط في المطبخ لأن
أحد الوصفاء ذهب إلى رئيس الطهارة وأعلنه أن الوليمة أجلت لمدة ساعات ،
فتضجر الرجل خشية أن يسرى الفساد إلى ما كولاته فرمى قرصا من الزبدة
إلى النار وكسر سلة من البيض ، ثم أخذ بتلابيب الوصيف وألقاه خارج
الباب ، ووقف شاهراً عليه مكنسة كبيرة

ولكن عند ما أقبلت العروس ، وطلبت إليه أن يطلق سراح الغلام ،
أوقف العقوبة ، وخلي سبيله ، وقال الحمد لله الذي جعلك رحيمة إلى هذا
الحد ، وما كنت لأزيدك حزناً على حزن « وحفظ الأكل مدة ساعات
دون أن ينبس بكلمة تدل على الغضب والتغليظ

وسارت العروس وحدها موهلة في الغابة الفسيحة لأنها أرادت أن تلتقي

حبيبها وهي تسعى على القدم غير مصحوبة بأحد كما يدخل الإنسان بيت الله وحيداً في ساعة الشدة

وكان يقيم في الغابة رجل متشرد أفاق من متلصصة الطرق ، فأبصر قدومها وهو مستلق بين الأدغال ، وكانت في يدها خواتم ، وعلى مفرقها تاج من الذهب ، وقد أحاطت بخصرها منطقة من الفضة ، وتدلّت حول عنقها اللآلئ ، فقال اللص لنفسه إنها امرأة ضعيفة ، وسأسلبها مجوهراتها وأصبح رب ثروة تمكّني من الذهاب إلى بلاد أخرى ، وأن أضع حداً لهذه الحياة البائسة الشقية في هذه الغابة وأغدو رجلاً محترماً أميناً

ولكن لما دنت منه العروس وأبصر وجهها خانتته شجاعته لما أفاضه الله عليها من الجمال فقال لنفسه « أنا لا أقوى على إيذاها ، إنها عروس ، ومثل هذه الحسناء لا ينبغي أن تسلب حليها في يوم الزفاف » وخشى الله الذي برأها وسواها وأفسح لها الطريق

وفي نفس الغابة كان يقيم ناسك شيخ يعذب نفسه بالتزامه اليقظة مدة ستة أيام وست ليال ، ولا يسمح لنفسه بالنوم إلا في اليوم السابع ، وكان قد أخذ نفسه بقانون صارم وهو أنه إذا عاقه شيء عن أن ينام نوماً هادئاً فعليه أن يستمر مستيقظاً مدة ستة أيام بلياليها ، وأقنع نفسه بأن هذه مشيئة الله ، والآن كان اليوم السابع واللييلة السابعة قد شارفا الانتهاء دون أن يمنح نفسه الراحة لكثرة المترددين عليه من الحزوين المعذبين ، ولما فارقه وأراد أن ينام أبصر بالعروس تخوض أحشاء الغابة المتكاثفة ، فقال لنفسه « كيف

تستطيع هذه المرأة أن تعبر النهر المضطرب الأواذى وقد طغى طوفانه هذه الليلة وأغرق الجسر؟ » وترك راحته ومضى إليها ، وحملها على ظهره وعبر النهر ، وعند ما عاد إلى مغارته كان الوقت قد انقضى ، وهكذا لأجل سيدة لا يعرفها اضطر أن يستمر مستيقظاً ستة أيام وست ليال أخرى ، ولكنه لم يأسف لذلك لأنها كانت من الرقة والملاحة بحيث أن كل من وقعت عينه عليها يحب أن يضحي من أجلها بشيء

وأخيراً وصلت إلى منزل حبيبها ، فلما قرعت الباب كان لا يريد أن يفتح لأنه جرد سيفه وعزم على الانتحار

وكانت الفتاة لا تستطيع أن تناديه ولا أن تتوسل إليه لأن الحزن عقد لسانها ، ولكن دموعها فاضت وسمع نسيجهما ، فلم يستطع أن ينتحز وهو يسمع ذلك ، فراخى المزلاق وأدخلها

فوقفت إزاءه مضمومة اليدين وشرحت له كيف أرغمت على الزواج من غيره ، ولما رأى أنه لا يزال يملك قلبها وعدها بأنه لا ينتحز ، ثم تعلقت به فقبلها وشعر بكل ما يتسع له القلب البشرى من سرور وحزن

وقال لها « يجب أن تنصرفي الآن لأنك لغيري » فأجابته « كيف أقوى على ذلك ؟ » ولكن الفارس الذى يحبها نزع نفسه من بين ذراعيها وقال « لا أظلم من سمح لك بالهوى إلى » وأعد جوادين مطهمين وصحبها إلى منزل أبيها

هذا ما رواه الأب الراهب للشيطان وهو يجهل من يحدثه ، ثم سأل : أى هؤلاء الناس الذين ذكرهم قدم أكبر تضحية ، وكان الراهب رجلاً

عاقلاً يعلم كل العلم أنه لا يوجد إنسان بدون خطيئة كما زعم هذا الغريب ،
وخطر للراهب أنه بهذه القصة يستطيع أن يعرف أى الخطايا السبع خطيئته ،
لأنه بتفضيله صنيع الأب أو الزوج أو الضيفان أو رئيس الطهارة أو اللص
أو العابد أو الحب يستطيع الراهب أن يعرف هل خطيئته الكبرياء أو الحسد
أو الجشع أو الغضب أو الحرص أو الكسل أو الشهوانية ، لأن الفضيلة التى
نعجب بها أشد الإعجاب فى الغير هى الفضيلة التى نجد صعوبة فى اكتسابها
وكان الشيطان من الاستغراق فى إتقان لعبته بحيث لم يفطن للشبكة
التي صنعها له الراهب فأجاب « حقاً إنه ليس من السهل الإجابة عن
سؤالك ، ويظهر لى أن الزوج لم يعط أقل مما أعطاه الحب وأن الضيوف
لم يقوموا بتضحية أكبر من تضحية اللص ، وكلهم يستحق أكبر الثناء »
وظن أن هذا هو كل ما يريده الراهب أن يقوله

فقال له الراهب وقد هاله ذلك « التماساً لرحمة الله قل على الأقل إنك
تفضل أحد هذه الأعمال على الآخر ، أو أنك لا تعلق أهمية كبرى على
واحد منها »

فقال الشيطان « لا أستطيع أن أنتقص أى عمل من أعمالهم ، ولا أستطيع
كذلك المفاضلة بينها »

فزم الكاهن شفتيه وأدناها من أذنه وقال فى صوت خافت « أتوسل
إليك أن تقول إن أحدهم قدم أكبر تضحية »
فرفض الشيطان أن يقول ذلك والتمس المغفرة

فانفجر الراهب قائلاً « انت إذن فيك كل هذه الخطايا السبع ، وربما
كنت الشيطان نفسه ولم تك بشرا !

ولما نطق بذلك وثب من كرسى الاعتراف ولاذ بالهيكل العالى وشرع
يتلو تعويذة طرد الشيطان

ولما رأى الشيطان أن أمره قد افتضح بسط عباءته حتى صارت أشبه
بجناحين مرفرفين ثم ارتفع محلقاً فى شكل خفاش أسود ضخم خلال أقبية
الكنيسة المظلمة

ولم تنكشف حيلته ، ويبطل تدبيره فقط بل قد استحال شره بفضل الله
بركة عظيمة ، لأن قصة الراهب كانت لمدة أجيال وسيلة للوقوف على طوايا
النفوس ، وإذا استعملت بتعقل فهي مثل الشبكة يلقي بها الصياد فى غمار
اليم لاصطياد السمك ، وهى تظهر الخطايا المستورة فنستطيع أن نحاربها
وننتصر عليها .



حارس المنارة

(عن الكاتب البولوى سينكوكز)

[ولد هنرى سينكوكز سنة ١٨٤٦ ، ومات فى سنة ١٩١٦ ، وله فى الأدب البولندى مكانة سامية وتاريخ ناصع فى الدفاع عن قضية بولندة والعمل على تحريرها ، وهو مؤلف رواية « أين المفر » أو عهد « نيرون » ، ولم يضع سينكوكز أساس الرواية البولندية ، وإنما أنماها وأوسع نطاقها ، ورواياته التاريخية من أعظم طرف الأدب وأنفس ذخائر الفن ، وقد بدأ حياته صحفياً وكتب طائفة من القصص القصيرة ، ثم نبت به بلاده وأقام طويلاً فى الولايات المتحدة ، فاتسع أمامه مجال الخيال وميدان الخبرة والتجربة ، وتظهر قدرته بأوضح مجالها فى رواياته الكبيرة حيث يطلق العنان لخياله القوى وبراعته الفائقة فى التلوين ، ورواياته تنبض بالحياة وتعج بالحركة ، وإن كان يعاب عليها أنها غير متماسكة البناء ولا متينة التصميم ، وقصة « حارس المنارة » تعد من أبدع قصصه القصيرة]

فى ذات يوم اختفى حارس منارة أسبنوول القريبة من بناما ، ولم يترك وراءه أثراً ، وكان اختفاؤه فى خلال زوبعة ، ولذلك غلب الظن بأن الرجل المنكود الحظ قد تمشى الى أقصى أطراف الجزيرة الصغيرة الصخرية التى تقوم عليها المنارة ، وهناك قذفته الأمواج ، ورجح هذا الظن عدم الإهتمام إلى زورقه بمرسأه فى اليوم التالى ، ولم تكن هناك مندوحة عن ملء مكانه فى أوجز مدى مستطاع ، وذلك لخطر شأن هذه المنارة عند الحكومة المحلية

وعند السفن التي تبهر من نيويورك قاصدة بناما ، والملاحة في خليج
موسكيتو ، حيث تكثر السدود الرملية والأجراف صعبة حتى في وضوح
النهار ، وفي الليل عند ما ينتشر الضباب الكثير الحدوث في هذه المناطق
التي تسخن ماءها حرارة شمس المنطقة الحارة تكاد تكون الملاحة غير
ميسورة ، والمناارة في مثل هذه الأوقات هي الدليل الوحيد للسفن الكثيرة
وكان اختيار حارس جديد للمناارة من شؤون قنصل الولايات المتحدة
في بناما ، ولم يكن هذا الاختيار بالأمر الهين ، إذ لم يكن هناك مفر من
إيجاد الرجل المناسب في خلال اثنتي عشرة ساعة ، وكان لابد من أن
يكون موفياً على الغاية في يقظة الضمير والتوفر على القيام بواجبه ، ولذلك
لم يكن من السهل أن يقع الاختيار على أول قادم وفقاً للصدفة ، وكان
يزيد الموقف حرجاً عدم تقدم مرشحين على الإطلاق ، لأن الحياة في
المناارة ليست مما يغري أهل الجنوب الذين يحبون البطالة ويعتقدون أن
العز في النقل ، وحارس المناارة شبه سجين ، فهو لا يستطيع أن يزابل
منارته إلا في أيام الآحاد ، وتأتيه ميرته في زورق من اسبنوول يحمل معه
الماء ، ولا يلبث أن يعود أدراجه في التو واللحظة ، والجزيرة ومساحتها فدان
خالية من السكان ، ويقم الحارس في المناارة ويحفظ فيها النظام ، وفي
خلال النهار يعطى الاشارات بالأعلام المختلفة الألوان ، ليدل على
تغير البارومتر ، وفي المساء يوقد المصباح ، وهذا عمل هين لولا أن عليه
أن يصعد أكثر من أربعين درجة عالية منحدرة غير مرة في اليوم للوصول

إلى المصباح الموضوع فى قمة البرج ، وفى بعض الأوقات يقوم بهذه السباحة مرات فى اليوم ، وعلى العموم فإن الحياة هناك حياة راهب متعبد ، لذلك كان المستراسحق فلكنبرج قلق البال ، كثير التفكير فى كيفية إيجاد حارس للمنارة ، ومن السهل أن نقدر سروره عندما تقدم إليه على غير انتظار فى نفس اليوم خلف لحارس المنارة ، وكان هذا المتقدم شيخاً طاعناً فى السن ، يبلغ السبعين أو أكثر ، ولكنه كان منتصب القامة ، بادر النضارة ، له سمت الجندى ، وكان أسمر اللون قد كلل هامته الشيب ، وتدل عيناه على أنه ليس من أهل الجنوب ، وكان يلوح على وجهه الحزن وانكسار الخاطر ، ولكن كانت تطالعك منه آيات الصدق والأمانة ، وقد سر فلكنبرج من أول نظرة ، فلم يبق إلا امتحانه ، ولذا بدأ هذه المحادثة معه :

— من أين أنت ؟

— أنا بولندى .

— وأين كنت تعمل إلى هذا الوقت ؟

— كان لى فى الأرض مضطرب .

— على حارس المنارة أن يلبث فى مكان واحد .

أنا فى حاجة إلى الراحة .

— هل مارست أشغالاً أخرى ؟ وهل عندك شهادات حكومية شريفة ؟

فاستخرج الرجل المسن من صدره قطعة من الحرير الحائل اللون تشبه قطعة منتزعة من علم قديم ونشرها وقال « ها هى الشهادات ، وقد أخذت

هذا الصليب سنة ١٨٣٠ ، وهذا الصليب الثانى أسباني من الحرب السكارية

وهذا الثالث نيشان فرنسى ، والرابع نلته فى النمسا

فأخذ فلكنبرج الورق وشرع يقرأ :

— هل اسمك سكافنسكى ؟ لقد أخذت علمين فى هجمة بالحراى ، لقد

كنت جندياً جريئاً

— أستطيع أن أكون حارس منارة يوثق به

— عليك أن تصعد البرج مرات عدة فى اليوم ، فهل ساقاك سليمتان ؟

— لقد عبرت الهضاب سعيماً على القدم

— أتعرف خدمة البحر ؟

— اشتغلت أربعة أعوام فى مراكب صيد الحيتان

— لقد عاجلت أشغالا كثيرة .

— الشىء الوحيد الذى لم أعرفه هو الراحة .

— ولم ذلك ؟

— فهز الرجل منكبيه وقال « هكذا حظى »

— لا أزال أرى أن شيخوختك قد تحول دون اختيارك لحراسة المنارة

فقال الرجل وقد تجلى التأثير فى نبرات صوته « إني مهديم القوة نضو

لغوب ، وقد مارست تصاريى الزمن كما رأيت ، وهذا المكان من

الأمكنة التى تمنيتها بكل جارحة من جوارحى ، وأنا الآن على السن ،

وفى حاجة إلى الراحة ، وإلى أن أقول لنفسى « هاهنا سيستقر بى المقام

وألقى مراسى الترحال « آه يا سيدى ! وهذا الآن متوقف عليك وحدك ،
وقد لا تسنح لى مثل هذه الفرصة مرة أخرى ، فأى حظ هذا الذى ساقنى
إلى بناما ، وأنا أضرع إليك ، وأقسم بالله العزيز إننى مثل سفينة إذا
أخطأت الميناء فستضل ويدركها العطب ، وفى استطاعتك أن تسعد شيخاً
فانياً مثلى ، وأقسم لك بأنى رجل أمين ، وقد أخذت كفايتى من ذرع
فضاء الأرض »

وكانت تبدو فى عينيه الزرقاوين آيات التوسل الشديد ، حتى تأثر
المستر فلكنبرج الرقيق القلب وقال له « أقر اختيارك فأنت من الآن
حارس المنارة »

— شكراً لك .

— أتستطيع الذهاب إلى المنارة اليوم ؟

— نعم أستطيع .

— استودعك الله ، ولكن لى كلمة : أن أى تقصير فى الخدمة جزاؤه العزل

— اعلم ذلك .

• وفى المساء عند دلوك الشمس فى الجانب الآخر من البرزخ ، وعند
ما أخذ الليل المظلم ينسخ ضوء النهار المشمس ، كان حارس المنارة فى مكانه
وكانت المنارة ترسل النور على الأمواج حسب المعتاد ، وكان الليل ساجياً
لا تسمع فيه لاغية ، شأن لىالى المنطقة الحارة المنعممة بالضباب
الشفاف الذى يرسم حول القمر قوس غمام ملون مديد رقيق الحواشى

غير منكسر الأطراف ، وكان البحر هادئاً لا يشوب هدوءه سوى حركة المد ، وكان سكافنسكى يبدو من الشرفة كأنه نقطة سوداء ضئيلة ، وحاول أن يحصر شوارد أفكاره ويتأمل مكانه الجديد ، ولكن عقله كان واقعاً تحت ضغط شديد يعوقه عن أن يفكر تفكيراً منتظماً ، كان يشعر شعور الحيوان الذى أجهده المطاردة عند ما يهتدى إلى مخبأ فى صخرة أو مغارة تعصمه ، وقد شعر أخيراً بالراحة والأمن ففاضت نفسه بالسرور وأفعمت بالغبطة ، وهو يستطيع الآن ، فوق هذه الصخرة النائية ، أن يسخر من جولاته وسياحاته ، وعثرات حظه وكوارث حياته ، كان مثل سفينة قد حطمت الزوبعة أمراسها ، ومزقت شراعها ، وقذفت بها وسط الموج ، ولكنها كانت لا تزال تشق طريقها إلى المرفأ ، وقد أومضت صورة هذه الزوبعة بمخيلته ، فجعل يقارنها بالمستقبل الهادى الذى لا تحت بشائره ، وقد نفّض على مسامع فكلنبرج بعض حوادث حياته ، ولكن ما قاله كان غيضاً من فيض ، ولقد كان من سوء حظه الملازم أنه حينما يضرب خيمته ، وينصب موقده ، ويعتزم الإقامة ، لا يلبث أن تهب عليه الرياح فتقتلع قوائم خيمته ، وتعصف بنيرانه ، وتحمله إلى البوار والدمار ، وقد عرجت به الذكريات الآن وهو يشرف من شرفة البرج ، ويرى الأمواج المستضيئة على كل ما مر به من ضروب الحوادث ، لقد خاض غمرات الحرب فى ميادين أركان الدنيا الأربعة ، ومارس فى أسفاره وتنقلاته كل مهنة ، ولما كان دؤوباً مجداً فى عمله مخلصاً فى أدائه فإنه جمع

غير مرة نقوداً وادخرها ، ولكنه ما عثم أن فقدوها برغم حيطته وحزمه وحسن تديره ، وقد اشتغل في مناجم الذهب في أستراليا ، وكان من المنقبين عن الماس في أفريقية ، وقام بالحراسة في جزائر الهند الشرقية ، وأنشأ محلاً للتجار بالماشية والأغنام في كاليفورنيا ، فأتلف الجذب تجارته ، وحاول الاتجار مع القبائل المستوحشة في داخل البرازيل فغرق زورقه في الأمازون ، ونجا وحده أعزل ، وطاف في الغابات أسابيع وعليه غلالة رقيقة ، وكان يعيش في أثناء ذلك على الفواكه ، وهو مستهدف للموت من أنياب الوحوش الضارية ، وأسس محلاً للحدادة في هيلانه واركنزاس فاحترق محله في حريق عظيم أكلت نيرانه المدينة برمتها ، ووقع في يد الهنود في الجبال الصخرية ولم ينج إلا بمعجزة ، ثم اشتغل بحاراً في باخرة تسير بين باهيا وبردو فعاجلها الغرق ، ثم اشتغل مع صيادي الحيتان في مركب من مراكب الصيد فغرق المركب ، وأنشأ مصنعاً لعمل سيجار هافانا فسرقه شريكه وهو مريض ، وأخيراً ألقى عصاه في اسبنوول ، وهناك كانت خاتمة فشله ونهاية كوارثه ، إذ ماذا عسى أن يرقى إليه في هذه الجزيرة الصخرية ؟ لا الماء ولا النيران ولا الرجال ، ولكن سكافنسكى لم يشق كثيراً من الإنسانية ، وقد لقي في حياته رجالاً أبراراً أكثر ممن صادف من الأشرار ، وإنما كان يخيل إليه أن العناصر الأربعة تضطهده ، وتعمل على إيذائه والنكاية به . وكان الذين يعرفونه يقولون عنه إنه قليل الحظ ويفسرون بذلك كل ما أصابه في حياته ، وقد استحوذت عليه فكرة واحدة لم يتحول عنها ، وهذه الفكرة

هى أن يداً جبارة منتقمة تقفو أثره فى كل مكان ولا تفتأ تطارده فى اليابس والماء ، وكان لا يحب الإفاضة فى الكلام عنها ، وكان يشير إلى النجم القطبى ويقول « أنها تأتى من هذه الناحية » ، والواقع أن عثرات حظه كانت متلاحقة مستمرة بشكل يشير العجب والدهشة ويخف به الحلم ويضيق الذرع ، ولا سيما ذرع الرجل الذى تجرع مرارتها وقاسى أهوالها ، ولكن سكافنسى كان له مثل صبر الهنود ، وقوة المقاومة الهائلة العظيمة التى تنبعث من صدق القلب وإخلاص السريرة ، فلم يهن للشدائد ، ولم يستسلم للنكبات ، ولم يقعد عن السعى ، وكان لهذا الجندى الذى صقلته الحوادث وفرته الخطوب قلب طفل ، وفى وقت الوباء الذى حاق بكوبا انتابه المرض لأنه وزع مقادير كبيرة من الكينين كانت فى حيازته ، ولم يترك لنفسه منه مثقال ذرة .

وفيه بعد هذه الخصلة الغريبة ، وهى أنه بعد كل هذا الفشل وخيبة الرجاء لم يزل ممتلئاً بالثقة فى أنه سيصادف حظاً ويلقى أياماً أسعد وأرغد ، وكان فى الشتاء يزداد نشاطه ويترقب بفروغ صبر تلك الحوادث الجسيمة ، وكان يطيل التفكير فيها مدة الصيف ، وطويت الأعوام وهو لا يرى منها سوى تبييض الشعر وإشابة الذوائب ، ثم علاه الكبر وجعل يفقد مضاهه ، وصارت قوة احتماله أشبه بالاستسلام ، واستحال هدؤه القديم فرط حساسية ، وتدهور هذا الجندى الحنك فصار مستعداً لإرسال الدمع لأى سبب ، وكان يحثم على روحه من الحين إلى الحين ميل شديد إلى وطنه ،

وكان يوقظ هذا الميل رؤية العصافير والأطيّار وقم الجبال المتوجة بالثلوج
 والموسيقى الحزينة ، وأخيراً استحوذت عليه فكرة الراحة واستغرقت كل
 رغباته وآماله ، ولم يتصور هذا الرحالة الذي نبت به البلاد أن هناك شيئاً
 أنفّس وأثمن من ركن هادئ يستريح فيه وينتظر خاتمته ، وكان لطول
 تقلبه في الأسفار يتصور أن أسمى سعادة بشرية هي أن يطمئن المقام
 بالإنسان في ناحية من النواحي ، وكان لا يطمع في أكثر من هذه السعادة
 المتواضعة ، ولتعوده خيبة الأمل وإخلاف الحظ صار يفكر في الراحة كما
 يفكر عامة الناس في شيء من وراء قدرتهم ، ولم يجترئ على أن يؤمل
 فيها ، ولكنه الآن على غير انتظار ظفر بمرکز كأنه قد اختير له ، ولما أوقد
 المصباح في المساء كاد يزيغ بصره ، وجعل يسائل نفسه أحقاً هذا ، ولم
 يجترئ على أن يؤكد لنفسه صدق الواقع ، ولكن الحقيقة أفعنته في نفس
 الوقت بهرايين لا تنقض ، وانقضت ساعة وهو في الشرفة ، وأخذ يحيل
 النظر فيما حوله ، ويقنع نفسه من جديد ، وخيل إليه أنه يرى البحر لأول مرة
 في حياته ، وكانت عدسات المصباح تلقى إلى الظلام مثلاً كبيراً من الضوء
 وراءه الظلام المعتكر حيث لا تستبين العين شيئاً ، وكانت غوارب الأمواج
 تصطبغ في الظلام وتتدافع إلى الجزيرة ، وكان المشرف من المنارة يشاهد
 متونها المذبذبة وهي تضطرب وتتوشب متوردة اللون في ضوء المنارة ، وكان
 المد يزخر أكثر فأكثر ويغمر الحواجز الرملية ، وكان هدير المحيط الغامض
 الخفي يزداد امتلاءً وقوةً ويحيى مرة كزثير الغابات الهائلة أو قصف المدافع

وأخرى كاللغظ المقبل من بعيد ، وكان يسود الهدوء هنيئة ثم تطرق أذن الشيخ بعده آهة عالية ، وإجهاش يتلوه انفجار مهدد منذر ، ثم أطارت الريح الضباب ، ولكنها أزجت سحبا سوداء متفرعة حجبت القمر وجعل يستشرى هبوبها ناحية الغرب ، وكانت الأمواج تتوالت مغضبة على صخر المنارة ، وتضرب بالزبد أساس الحيطان ، وعلى مسافة منه بدأت عاصفة تزجر ، وكانت المصابيح الزرق تشع الضوء من صواري السفن ، واشتد عويل العاصفة ، فأوى سكاغنسكي إلى غرفته ، وكانت الناس في السفن تجالذ الليل والظلام والأمواج ، وكان الهدوء مخيا داخل البرج ، وحتى عزيز الزوبعة كان لا يكاد ينفذ من الحيطان السمكية ، وكان الشيخ المتعب لا يسمع سوى دقات الساعة

وانقضت ساعات ، وطويت أيام وأسابيع ، والبحارة يؤكدون أنه في بعض الأحيان عند ما تشتد ثورة البحر يهتف بأسمائهم هاتف من جوف الظلام ، وإذا كان من دأب لانهاية البحر هذا الهاتف فمن الجائز أن الإنسان عند ما يمعن في الكبر يستك في مسامعه صوت هاتف مقبل من لانهاية أخرى أشد حلوكة ظلام وأبعد قراراً في الخفاء والغموض ، وكما ازداد تبرماً بالحياة وأثقلت كاهله أعباؤها كان هذا الهاتف أشد وقعاً في نفسه وأبلغ أثراً ، ولكن هذا الهاتف لا يصفح الآذان إلا في ساعات الصمت والهدوء ، وفوق ذلك فإن الشيخوخة تغرى بالوحدة كأنها تهيب للقبر ، ولقد كانت المنارة لسكاغنسكي شبيه قبر ، والحياة في المنارة راتبة مملة

لا يطبق احتمالها الشبان ، وحراس المنائر في الأغلب رجال قد خلعوا الشباب
وألفوا الحزن والعكوف على النفس ، فإذا ترك أحدهم منارته ومضى بين
الناس ألفتته يسير بينهم كالمستفيق من نوم عميق ، وفي البرج لا يوجد
ثمة مجال للتأثرات الدقيقة التي تعلم الناس في الحياة العادية أن يلائموا
بين أنفسهم وبين الأشياء ، وكل ما يكتنف حارس المنارة ضخم هائل
ومجرد من الحديد ، فالسما وحدة كلية ، والمياه كذلك وحدة شاملة ، وبين
هاتين اللانهائيتين تلوذ روح الإنسان بالعزلة والتفرد ، والحياة في المنارة استغراق
متواصل في التأمل والتفكير ، لا يوقظ الإنسان منه شيء ، وحتى نفس العمل الذي
يباشره لا يقطع عليه تفكيره ولا يعترض تأمله ، وتمر الأيام متشابهة الصفحات مثل
حبات السبحة لا تمتاز من بعضها إلا بالتقلبات الجوية ، وكان سكا فنسكي يشعر
بسعادة لم يشعر بمثلها في كل أدوار حياته ، كان يستيقظ مع الفجر ، ويتناول
طعام الإفطار ، وينظف العدسات ثم يجلس في الشرفة يرسل رائد الطرف
إلى الأبعاد المترامية من المياه ، ولم تمل عينه الصور التي كان يراها ، وكان
يبصر على مهاد المحيط الفيروزي اللون شرع السفن المنتفشة تلمع في أشعة الشمس
لمعاناً يخطف الأبصار سناه ، وفي منتصف النهار كان يتطاير الدخان من
بين الأشرعة ، وكان هذا الدخان ينبعث من باخرة مقبلة من نيويورك
تحمّل ركاباً وبضائع إلى اسبنوول وتجبر وراءها طريقاً مزبداً ، وفي الجانب
الآخر من الشرفة كان سكا فنسكي يرى اسبنوول وميناءها الكثير الحركة
وبه غابة من الصواري والقوارب ، وكأنها جميعاً على راحة يده ، وكانت

القوارب تتراءى له مثل الهوام ، وفي تباشير الصباح كان يهب النسيم عليلا
نديا حاملا صخب الحياة البشرية المختلطة ، وقد تغلب عليه صفير البواخر ،
وفي المساء حوالى الساعة السادسة تنقطع الحركة فى الميناء وتأوى النواريس
إلى صدوع الأجراف وتضعف الأمواج ويعروها فتور وتبلد ، ويغمر
الأرض والبحر والبرج سكون لا تشوبه شائبة ، وتلمع الرمال الصفراء التى
انحسرت عنها الأمواج مثل الشرائط الذهبية ، وتبدو صورة البرج واضحة
جليية فى الأزرق الزجاج ، وتنصب شأبيب ضوء الشمس على الماء والرمال
والأجراف ، وفى مثل هذا الوقت كان يستولى على الشيخ الهرم نوع من
الكلال المستعذب ، ويشعران بالراحة التى ينعم بها راحة فاخرة ، وكان
عند ما يفكر فى أنها باقية مستمرة يشعر بأنه لا ينقصه شىء

كان سكاغنسكى ثملا بسعادته ، ولما كان الانسان مجبولا على أن يألف
التحسن فى أحواله وظروفه فانه استرد يقينه وثقته تدريجيا ، وكان يقول
لنفسه إنه إذا كانت الناس تبغى المستشفيات للمرضى فلماذا لا يجمع الله
شمل مرضاه ويظلم برعايته وقد دنت نهايتهم وزاده مر الزمن إيماننا بهذه
الفكرة ، وألف برجه ومصباحه وصخرته والخواجز الرملية والوحدة
والنواريس التى كانت تضع بيضها فى صدوع الصخرة ، وتلتقى كل مساء
فى سقف المنارة ، وكان يرمى لها بقية طعامه ، وسرعان ما ألفتها الطيور ،
فكانت تحف به وتحوم حوله بأجنحتها البيض وهو يطعمها ، وكنت تراه
بينها كالراعى بين أغنامه ، وعند انحسار موجة المد كان يذهب إلى الرمل

حيث كان يجمع بعض الأعشاب البحرية والاصداف الجميلة التي خلقتها
الأمواج على الرمل ، وفي الليالى القمرية كان يذهب ليصطاد السمك الذى
يفشى الجرف ، وقوى حبه لصخوره وجزيرته النائية الخالية من الأشجار
والتي لا تخرج أرضها سوى نبت صغير

وكانت المناظر البعيدة تهون عليه فقر المناظر فى الجزيرة ، وفى خلال
الأمسيات عند ما يصفو الهواء ويشف كان يستطيع أن يرى البرزخ مأجاً
بالمزروعات وكان يتمثل له من بعيد حديقة رحيبة متسعة الأكناف ، وكان
يرى وراء ذلك فيما بين اسبنوول وبناما غابة مترامية ينتشر فوقها صباح
مساء ضباب أحمر ناشئ من التبخر ، وكان يستطيع أن يبصر بمنظاره
أشجار الموز وأوراقها العريضة والقردة والأطيوار الجميلة وأسراب الببغاوات ،
ولقد كان يعرف هذه الغابات حق المعرفة لأنه أمضى أسابيع يحوس خلالها
بعد غرقه فى الأمازون ورأى الأخطار العديدة وألوان الموت التى تختبئ
خلف هذه المظاهر العجيبة الباسمة ، وكان يسمع فيها أثناء الليل ولولة القردة
الصريعة وزئير النمر ، وكان يرى الثعابين الكبيرة ملتفة على الأشجار ،
وقد عرف البحيرات الوسنانة فى الغابات المترعة بالتماسيح والسمك
الرعاد وأدرك العبء الثقيل الذى يعيش تحته الإنسان فى هذه البرارى
الأبكار حيث حجم أوراق الشجر يفوق حجم الإنسان عشرات المرات ،
وحيث الناموس الذى يمتص الدماء والعناكب السامة ، وقد مارس
حياة الغابات ورآها بعينى رأسه ، ولذا سره أن يشرف عليها من أعاليه

ويعجب بجمالها وهو من أخطارها في حرز حرير ، لأن برجه قمين
بأن يدفع عنه كل خطر ، وكان لا يبرح مكانه سوى أيام الآحاد ،
وكان يرتدى حينذاك حلة حارس المنارة الزرقاء ذات الأزرار اللامعة
الفضية ، ويلتصق ب صدره الأوسمة ، ويرفع رأسه في كبرياء وترفع وهو
يدخل باب الكنيسة ، ويسمع الناس يقولون « حارس منارتنا رجل
شريف متدين » وكان ينكفيء إلى منارته بعد الصلاة ، فيقرأ الجرائد
الإسبانية التي يستحضرها من المدينة ، أو جريدة نيويورك هيرالد
التي كان يستعيرها من فلكنبرج ، وكان يبحث فيها بشغف شديد عن
أخبار أوروبا ، فقد كان قلبه الصديق المحزون المقيم في الجانب الآخر من
الكرة الأرضية لا يزال ينبض بحب بلاده ويهفو نحوها شوقاً ، وكان في
بعض الأحيان عند ما يحجىء الزورق الذي يحمل إليه الميرة والماء ينزل من
البرج ويحدث جونسون الحارس ، ولكن سرعان ما كان يغلبه الحياء ،
ثم انقبض عن الذهاب إلى المدينة وعن قراءة الجرائد وعن النزول للكلام
في السياسة مع جونسون ، ومرت عليه أسابيع على هذه الوتيرة لا يرى
إنساناً ولا يراه إنسان ، وكان الدليل الوحيد على وجوده اختفاء الميرة التي
تترك على الشاطئ ، وضوء المصباح الذي كان يوقد كل مساء بنفس النظام
الذي تشرق به الشمس كل صباح من وراء مياه تلك الأقطار ، وأصبح
هذا الشيخ المسن لا يكثر لشيء في الدنيا ، ولم يكن منشأ ذلك مرض
النزوع إلى وطنه فإن نفس هذا الشوق الشديد إلى بلاده قد آض استسلاماً

وأصبحت الدنيا في نظره تبتدى وتنتهى في هذه الجزيرة ، واطمان إلى فكرة أنه لن يبرح هذه الجزيرة حتى موته ، ونسى وجود كل شيء خارج الجزيرة ، واستقل مشاعره الاحساس الصوفي فجعل يلمح الأشياء بنواظر الأطفال الأبرياء ، وفقد شيئاً فشيئاً الشعور بالفردية تلقاء هذا المحيط الهائل العظيم ، وتراءى له أن السماوات والماء والصخر والبرج والشواطئ الرملية المذهبة والقلوع المنفوشة ونواريس البحر والمد والجزر كأنها جميعاً وحدة هائلة ضخمة وروح كبيرة خفية ، وأنه مطوى في ثنايا أسرارها غارق في خفاياها ، وأحس براحة كبرى في هذه اليقظة الحاملة وهذا الانكار لفرديته ، ولكن أعقب ذلك كله اليقظة الكاملة !

ففي ذات يوم نزل سكافنسكى من برجه ليحمل ماءه وميرته ، فرأى مع الحمولة المعتادة طرداً على جانبه طوابع بريد الولايات المتحدة ، والعنوان « المحترم سكافنسكى » مكتوب على قطعة قماش غليظة ، ونبه هذا تطلعه ، ففرض الغلاف ووجد كتباً ، وتناول أحدها في يده ، وألقى عليه نظرة وأعادته إلى مكانه ، وجعلت يداه ترتجفان بشدة ، وحجب عينيه كأنه لا يصدقهما وخيل إليه أنه في حلم ، وكان الكتاب باللغة البولندية فماذا يعنى هذا ؟ ومن عسى أن يكون قد أرسله ؟ ولم يخطر بباله أول وهلة أنه في بدء التحاقه بالمنارة قرأ في جريدة الرائد التي استعارها من القنصل أخباراً عن جمعية بولندية في نيويورك ، وأرسل لهذه الجمعية نصف مرتبه ، لأنه لم يكن في حاجة إلى نقود وهو في البرج ، فأرسلت إليه الجمعية هذه الكتب مشفوعة بالشكر ،

وجاءت الكتب بالطريقة المألوفة ، ولكن كل ذلك لم يخطر بباله ، كتب
بولندية في اسبنوول ! وفي هذا البرج ! وفي تلك العزلة ! كان يرى في ذلك
ضرباً من المعجزة ، وخيل إليه أن هاتفاً يهتف باسمه بصوت مألوف منسى ،
وجلس برهة وعيناه مطبقتان ، وكاد أن يتأكد من أنه عند ما يفتحهما
لا يرى معالم هذا الحلم

وكان الطرد وهو ملقى أمامه ، وقد فض الغلاف عن محتوياته يضىء
بوضوح في وهج المساء ، وكان به كتاب آخر ، ولما مدسكا فنسكى يده إليه
سمع نبضات قلبه ، وكان الكتاب ديوان شعر ، ولم يكن اسم ناظمه مجهولاً
عنده ، فقد قرأ اشعار ميكوكز وهو في باريز عام ١٨٣٠ ، وسمع بعد ذلك
من مواطنيه وهو يحارب في الجزائر عن شهرته المتعالية و بزوغ نجمه ، ولكنه
كان في ذلك الوقت يحمل السلاح لا الكتب ، وفي سنة ١٨٤٩ ذهب إلى
أمريكا ، ولم يصادف في حياته الحافلة بضروب المخاطر أحدًا من البولنديين
إلا في النادر ، ولم تقع عينه على كتب باللغة البولندية ، ولذا عاد إلى الكتاب
بتلهف وقلبه ينبض نبضاً عالياً ، وأحس أن حادثاً جليلاً قريب الوقوع في
صخرته النائبة المنفردة ، وكانت ساعة صمت وسكون ، ودقت ساعة
اسبنوول الخامسة مساءً ، وكانت السماء صافية لا تشوبها شائبة سوى
النواريس السابحة في الفضاء ، وكان المحيط كأنما استولى عليه الرقاد وأخذت
أواجه تتعثر على الشاطئ في سكون وتفتش الرمل ، وكانت ابنة اسبنوول
البيضاء والفاف النخيل وبواسق الأشجار كأنها تبتسم من بعيد ، والحقيقة

أنه كان هناك شيء جليل مرهوب ، وجأة كان يخترق هذا السكون صوت
الرجل المسن المتهدج وهو يقرأ هذه الأبيات : « ليتونيا يا مسقط رأسي ،
ومألف طفولتي ، انت كالعافية بعد السقم ، لا يدري مكانك من نفوسنا
إلا من كابد فقدك ، وعانى مرارة بعدك . وها أنذا اليوم يطالعني جمالك
في أتم روائه ، واخلب صورة ، لشدة حنيني إلى قربك »

ثم خانه صوته وجعلت الحروف ترقص أمام عينيه ، وكأنما انفجر
في صدره شيء سرت موجته من القلب خائفة لصوته ، ضاغطة على حنجرتة
وتقضت هنيئة ثاب بعدها إلى رشده وعاود القراءة .

« أيتها البتول الطاهرة التي تحمي سنتسكوا الزاهرة الفيحاء ، وتحرم
قلعة نوجرودك وسكانها الأمناء ، رديني بمعجزة باهرة إلى احضان بلادي
كما رددت على في طفولتي الصحة لما وضعتني أمي الباكية تحت ظل رعايتك
ودرجت في سمت اعتابك المقدسة ورفعت جفني الذابلين الى السماء شكرا
لله على ما أعدت الى من عافية ورددت على من قوة » وغشيت نفسه غاشية
على الرغم منه ، وتهد وارتقى على الأرض ، واختلط شعره الأبيض برمل
البحر ، ولقد مرت أربعون سنة منذ هجرته من وطنه ، والله يعلم كم مرة في
غضونها سمع لغة بلاده ، ولكنها الآن ابجرت اليه على متن المحيط ،
وزاره حديثها المحبوب الجميل وهو في وحدته ؛ في النصف الآخر من
الكرة الأرضية

ولم يكن التهد الذي ألم به تنهد ألم وإنما كان انبعاث حب شديد كان

ثأوياً في جوانحه يهون بإزائه كل شيء ، ويتلاشى كل موجود ، وبهذا
البكاء العظيم وحده توسل إلى تلك المحبوبة والتمس عطفها ، ولقد كان ألهام
عنها علو السن وصخرته النائية المنفردة ولكن الآن عاد إليه حبها القديم
فوئب قلبه وثباً

ومرت دقائق وهو مستلق ، وطارت النواريس محلقة حول المنارة ،
مرسلة الصياح كأنها كانت تخشى ما سيصيب صديقها حارس المنارة ،
وحانت الساعة التي كان يطعمها فيها فضلات طعامه ، فطار بعضها إلى المنارة
واقتربت منه رويداً رويداً ، وجعلت ترفرف بأجنحتها فوق رأسه فأيقظه
صوت الأجنحة ، وكان قد استوفى نصيبه من البكاء وأظله هدوء وصفاء ،
ولكن عينيه كانتا تلمعان بنور الوحي والإلهام ، فأعطى طعامه كله للطير
وعاد إلى كتابه ، وكانت الشمس قد غابت وراء حدائق بناما وغاباتها ،
وكانت تميل نحو المغرب خلف البرزخ في المحيط الأعظم الهادي ، ولكن
الاطلانطبق كان لا يزال حافلاً بالضوء فاستطاع أن يتابع قراءته لحظة أخرى
« احملي الآن روجي المشتاقة إلى منحنيات هذه الغابات وتلك المراعى
الخضر » وأخذ غبش المساء يخفي الحروف ، فأسند الرجل المسن رأسه إلى
الصخرة وأطبق عينيه وطارت بروحه حامية سنتسكوا الفيحاء إلى تلك
المراعى الخضر والحقول الضحيانة ، وكانت غابات الصنوبر تهمس في
أذنه ، وجداول بلاده يرتفع هديرها ، ورأى كل شيء كسابق عهده به ،
وكان كل مشهد من المشاهد كأنما يسأله « هل تتذكر » نعم هو يتذكر !

كان يرى الحقول الفسيحة والغابات الواسعة والدساكر والقرى ، والآن خيم الليل ، وفي مثل هذه الساعة كان ينير الظلماء مصباحه ، ولكنه كان الآن غائبا في قريته ، ثم أحنى رأسه على صدره وهو مستغرق في الأحلام ، وكانت الصور تمر أمام باصريه مشوشة بعض التشويش ، ولم ير المنزل الذى ولد به لأن الحرب خربته ، ولم ير والده ولا والدته لأنهما ماتا وهو طفل ، ولكن القرية تمثلت له كأنما تركها بالأمس ، وتراءت له صور كل ما مر به من الحوادث وذكريات الليالى السالفة فى تفاصيلها الدقيقة وألوانها المتباينة ، وبينما هو مسترسل فى أحلامه أهاب به صوت يقول له « قم أيها الشيخ المسن . ماذا أصابك ؟ ففتح الرجل عينيه ، ونظر نظرة تعجب ودهشة إلى الواقف قبلته ، وكانت بقايا الحلم لا تزال تقاوم الحقيقة فى ذهنه ، وأخيراً انحسرت الرؤيا ، وغابت معالمها ، ورأى أمامه جونسون حارس الميناء .

ما هذا ؟ هل أنت مريض ؟

انك لم توقد المصباح ، وعليك ان تبرح مكانك ، ولقد غرقت باخرة مقبلة من سان جيرومو ، ولحسن الحظ لم يفرق أحد من ركبها ، وإلا كنت قدمت للمحاكمة ، إنزل معى الى الزورق وستسمع الباقي فى القنصلية فامتقع وجه الرجل وأدرك أنه لم يوقد المصباح هذه الليلة

بعد ذلك بأيام كان سكافنسكى على ظهر باخرة ذاهبة من اسبنوول إلى نيويورك ، وكان المسكين قد فقد وظيفته وعاوده التشريد فى البلاد ، وعادت

الرياح فانتزعت هذه الورقة لتطيرها فوق الأرضين والبحار ، وتلعب بها
ما شاء لها اللعب ، وكان الهزال قد ألح بجسمه ونال منه الضعف في تلك
الأيام القلائل ، ولكن عينيه كانتا تتوقدان ، وكان يحمل في صدره وهو
يسير في طريقه الجديد كتابه ، وكان يتعهده بيده من الحين إلى الحين
خشية أن يفقده كما فقد غيره ما



الفار

عن استيفان زفايج . Stefan Zweig

(١٨٨١ — ١٩٤٢)

[هذه القصة مختارة من مجموعة قصص كتبها بالألمانية ستيفان زفايج ونقلها إلى الإنجليزية ادن وسيادر بول ، وزفايج علم من أعلام الأدب العالمي الحديث ، وفنان مطبوع ، لاتند عنه عاطفة بشرية ولا تأخذله صورة من صور الفن ، فهو شاعر وناقد ومؤلف مسرحي وكاتب قصصي ، وقد اشتهر بتراجمه البديعة ، وكل آثاره موسومة بمسمى الأستاذية والتمكين ، وهو رجل مشغوف بالمعرفة دائم الاستطلاع والتنقل في مختلف الآفاق ، وصفه صديقه رومان رولان بقوله : « انه يحب بعقله ويعي بقلبه » وهذا فيما أعلم هو شأن الفنان العظيم]

في ليلة من ليالى صيف سنة ١٩١٨ أبصر صياد وهو في زورقه ببخيرة جنيف على مسافة قريبة من المدينة السويسرية الصغيرة فلنبيف شيئاً غريباً غير مألوف طافياً على سطح الماء ، ولما اقترب منه لحظ أنه طوف مصنوع من أخشاب مشدود بعضها إلى بعض بطريقة غير محكمة ، وعليه رجل عار يجدف بلوح من الخشب ، وكان قد ابتعدت أطرافه ونفذت قوته ، فحرك ذلك عطف الصياد الذاهل المتعجب ، فشرع يعاون هذا

السائح الذي كان يرتعش ارتعاشاً من رأسه إلى أخمصه على الانتقال إلى زورقه ، ثم ألقى عليه بعض الشباك ليستره بها ، وكانت هي الغطاء الوحيد الميسور ، وحاول أن يجاذبه الحديث ، ولكن الغريب الذي أنقذ جثم في قاع الزورق وأجاب بلسان لم يستطع الصياد أن يفهم منه شيئاً ، ويئس الصياد من محاولته وجمع شباكه وحرك مجدافه ميمماً شطر الشاطئ.

ولما ظهرت معالم الشاطئ في ضوء الفجر المتبلج بدت على الرجل العاري أمارات الارتياح ، وتهللت ابتسامة على فيه الأشدق الذي يكاد يختبئ أكثره خلف شارب وحف أثيث ولحية كثة مرسلة ، وكان كلما قارب الشاطئ يومي إليه ، ويردد لفظة تقع في الأذن موقع لفظة « روسيا » ، ولما دنا الزورق من المرسى فاضت نفسه سروراً ، وأفعمت بالثقة والاطمئنان ، وحين رسا الزورق على الشاطئ أقبلت لمة من النساء قريبات الصياد ليساعدنه في إنزال صيد الليل ، ولكنهن سرعان ما تراجعن وتفرقن مرسلات صيحات الفزع عند ما أبصرن الرجل العاري المتدثر بالشباك ، ولما ذاع الخبر في المدينة هرع الكثيرون إلى المرسى يتقدمهم شيخ البلد ، وأخذ هذا الرجل الملحوظ المكانة الشديد الإحساس بما له من خطر يرجع في عقله مختلف التعليمات والأوامر التي وردت من المراجع العليا في غضون سنوات الحرب الأربع ، وكان مقتنعاً بأن القادم الجديد لا بد أن يكون أحد الفارين القادمين من ناحية شاطئ البحيرة الفرنسي ، فأسرع في الانهيار عليه بالأسئلة الرسمية ، ولكنه لم يلبث أن اعترضته صعوبة لم يستطع تذليلها والتغلب عليها ، وذلك أنه لم يستطع التفاهم مع هذا الغريب

القادم ، فقد كان لا يجاوب عما يوجه إليه من الأسئلة سوى بلفظة واحدة وهي « روسيا » « روسيا » ! بصوت مضطرب متعثر يبدو فيه التوسل والتماس الرحمة .

تضايق شيخ البلد من فشله ، وكبر عليه الأمر ، فسار في طريق المحكمة ، وأشار إلى اللاجيء إشارة الأمر ليتبعه ، فأطاع الرجل وتقدم بين لغط الأطفال الذين تكاثروا لمشاهدته وهو يهرول في ثيابه المستعارة الفضفاضة المدلاة . ولما بلغ المحكمة عهد بالمحافظة عليه إلى حراسة أمينة ، ولم يبد الرجل معارضة ، ولم يفه بكلمة ، ولكن غشيت وجهه قتره ، وأحنى رأسه في خوف كأنه ينتظر الضربة المقبلة .

وتسامع نزلاء الفنادق المجاورة بأخبار ما حملته شبكة الصياد ، وأقبل الخليون منهم زرافات ليزجوا الوقت باستطلاع أحوال هذا الرجل الغريب ، وحاولت إحدى السيدات أن تقدم له شيئاً من الحلوى ، ولكنه رفض أن يمسها لسوء ظن خالجه شبيه بسوء ظن القردة ، وتحلق حوله المشاهدون وهم يتحدثون في جذل وسرور ، وحضر أخيراً مدير أحد الفنادق الكبيرة المجاورة ، وكان جوابه أقطار ، ويعرف لغات عدة ، فحاول أن يتحدث إلى الغريب — الذي أصبح خائفاً فزعاً — بالألمانية والإيطالية والانجليزية ، وأخيراً بالروسية ، فعند أول لفظة روسية قرعت سمعه ، دب السرور في أوصاله ، واشتد عزمه ، وأسفر محياه ، وشرع يقص قصته ويروي تاريخه ، وكان تاريخاً مشوشاً مضطرباً ، ولم تكن تفصيلاته واضحة وضوحاً تاماً لهذا المفسر الذي ساقته المقادير ، ولكن جوهر القصة كان كما يأتي :

إنه حارب في روسيا ، وفي ذات يوم نقل هو وكثيرون غيره في عربات
السكة الحديدية ، وطوى بهم القطار مسافات شاسعة ، ثم أبحروا في سفينة
وقاموا برحلة طويلة ، ومروا ببحار شديدة الحرارة ، ولما رست بهم السفينة
على البر في نهاية الرحلة سافروا بطريق السكة الحديدية ، وبعد رحلة قصيرة
أرسلوا للنسف تل ، ولم يطل حديثه عن هذه الحرب ، لأنه أصيب في بادي
الأمر برصاصة في ساقه .

واستطاع السامعون الذين تلقفوا القصة جملة جملة كما فسر لها المترجم أن
يدركوا أن هذا الهارب أحد جنود الفرقة الروسية المرسلة من سيبيريا ،
والتي عبئت في فلاديفستك وأرسلت إلى فرنسا ودفع حب الاستطلاع
المشوب بالعطف كل واحد من الحاضرين إلى أن يستفسر عن سبب قيام
لرجل بهذه الرحلة التي أفضت به إلى هذه البحيرة .

ولم يرضن عليهم الروسى بما يشفى غلتهم ، فقال للمترجم بابتسامة صريحة
ولكنها ليست خالية من المكر ، إنه سأل أثناء وجوده بالمستشفى عن موقع
روسيا فأشير له نحوه ، فعند ما استطاع الوقوف هرب ، وسار في اتجاه وطنه
مهتديا بالشمس والنجوم ، وكان يمشى في آناء الليل ويختبئ في النهار
ببيادر الدريس ، وكان يمسك رmqه بأكل الفاكهة التي يجمعها ، ويسأل
الناس من الحين إلى الحين رغيفاً من الخبز ، وبعد مسير عشرة أيام ورد
البحيرة ، وهنا صارت قصته غامضة ملتبسة ، فهو مزارع من سيبيريا ،
ومنزله قريب من بحيرة بيكال ، ورأى أنه يستطيع بلوغ الشاطئ الآخر

من بحيرة جنيف ، ودار في خلده أنه يلزم أن يكون الشاطئ الآخر هو روسيا ! وسرق بعض ألواح الخشب من أحد الأكواخ ، واستلقى عليها ، واتخذ منها مجدافاً ، وشق طريقه في عباب البحيرة حيث وجده الصياد ، وختم قصته بهذا السؤال اللاهف !

« هل أستطيع أن أصل إلى وطني غداً ؟ »

وأثارت ترجمة هذا السؤال عاصفة من الضحك بين الحاضرين لسذاجة الرجل ، لكنهم أشفقوا بعد ذلك عليه وقاموا بعمل ا ككتاب ، ودفع كل واحد منهم مبلغاً زهيداً لمساعدة هذا الهارب الباكى المرعوب وحضر أحد كبار موظفى الأمن العام ، وكتب تقريره الرسمى بصعوبة كبيرة لأن المترجم كان يجد عناء ومشقة فى فهم حديث الرجل ، ولأن نقص ثقافته أقامت حاجزاً بين عقله وعقل هؤلاء « الغربيين » فهو لا يستطيع أن يعرف لقبه ، وقد عاش هو وزوجته وأطفاله الثلاثة على مقربة من البحيرة العظيمة ، وهو من مزارعى الأمير متشرسكى

ودارت مناقشة عن مصيره وهو واقف منكس الرأس مخنى الكتف ، وقد علت وجهه غبرة الحزن ، ورأى فريق من المتناقشين أنه يجب إرساله إلى المفوضية الروسية فى برن ، ولكن الفريق الآخر رأى أنه فى هذه الحالة يرد إلى فرنسا ، وكان هناك صعوبة أخرى من ناحية الفصل فى أمره ، وهل يعامل معاملة الفار أو معاملة أجنبى لا يحمل شهادات تدل على شخصيته ، وعن ضابط الإقليم بأن يوضح أن هذا الأجنبى ليس له حق الضيافة على

نفقة السلطة المحلية ، وتقدم أحد الفرنسيين وقال متحمساً مهتاجاً : « إن حالة هذا الهارب البائس واضحة للغاية ، فدعوه يعمل أو رده إلى الحدود » فعارضت في ذلك سيدتان ، وقالتا إن هذا الرجل لا يلام على ما حل به من البلايا ، وإنه من الإجرام أن ننتزع الناس من بلادهم ونرسلهم إلى بلاد أجنبية .

وكانت المناقشات السياسية الحادة توشك أن تظهر عندما تقدم فجأة رجل دانمركي ، وأعلن رغبته في أن يدفع نفقات إيواء الغريب خلال الأسبوع القادم ، وتستطيع السلطات المحلية في مدى تلك الفترة أن تبحث الأمر مع المفوضية الروسية ، وقد وضع هذا الحل غير المنتظر حداً للارتباكات الرسمية ، وجعل المختلفين من غير الرجال الرسميين ينسون اختلافاتهم .

وفي أثناء احتدام المناقشة كانت عين الغريب ترقب باهتمام شديد شفتي مدير الفندق بوصفه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يعرفه مصيره بين الجمع الحاشد ، وقد استطاع أن يفهم بعض الفهم الارتباكات التي سببها حضوره ، ولما هدأت حدة المناقشة رفع يديه المضمومتين إلى ناحية وجه المدير ، وتوسل ضارعاً في صورة امرأة راكعة إلى تمثال مقدس ، فتأثر الجميع بازاء هذا المشهد ووقفوا له ، وأكد له المدير أنه يستطيع أن يكون هادئ البال مطمئن النفس ، فقد سمح له بالبقاء هنا مدة من الزمن ، ولا يستطيع أحد أن يناله بسوء ، وأن جميع ما يحتاج إليه سيرسل له في حانة المدينة ، وأراد الروسي أن يقبل يد المدير ، فرفض ذلك ، وصحبه إلى

الحانة حيث أعد له فراش ومائدة ، وأكد له أن الأمور تسير سيراً حسناً ،
ثم انحنى له انحناءة تنم على العطف والرعاية وعاد أدراجه إلى الفندق .

وبعد انسحاب المدير أخذ اللاجئ يشيعه بنظره ، وأظلت وجهه غيمة
من الكدر لا ابتعاد الرجل الوحيد الذي يستطيع التفاهم معه ، وأتبعه نظره
حتى اختفى ، وتقدم أحد الحاضرين وربت على كتف الروسي بعطف
ورفق وأشار إلى باب الحانة ، ودخل اللاجئ منزله الموقوت منكس
الرأس ، ودعى إلى الحجرة التي تقدم فيها الجعة ، وجلس إلى مائدة حيث
أحضرت له الخادمة كأساً من الكونياك ترحيباً بقدومه ، وقضى هناك
بقية الصباح ، وكان أطفال القرية لا ينفكون ينظرون إليه من النافذة ،
ويتغامزون ويتضاحكون ويصيحون به من الحين إلى الحين ، ولكنه كان
لا يعيرهم التفاتاً ، وكان رواد الحانة يوجهون إليه نظرات فحس وتساؤل ،
ولكنه كان طوال الوقت جالساً وعيناه متجهتان صوب المائدة ، وقد علاه
الخلج والحياء ، ولما أحضر له طعام الغداء امتلأت الحجرة بالمتحدثين في
مرح وسرور ، ولكن الروسي لم يستطع أن يفهم شيئاً من أحاديثهم ،
والواقع أنه كان كالأصم بين قوم يستطيعون أن يتجاذبوا الحديث ويتبادلوا
الأفكار ، وكان يشعر بأنه غريب بين الغرباء ، وكانت يدها ترتعشان
حتى إنه لم يستطع أن يتناول حساءه ، وتحدرت دمعة على وجنته وتساقطت
على المائدة ، وأدار الطرف حوله في حياء وخوف ، وأدرك رواد الحانة
ما يعانيه الرجل من ضيق وكرب فاستولى عليهم الصمت .

وظل جالساً فى الحجرة حتى المساء ، وكان الناس يدخلون ويخرجون وهو لا يشعر بهم وهم لا يشعرون به ، ونسى الجميع وجوده ، ولما اشتد الظلام نهض بفتة من مقعده ، وخرج من الحجرة دون أن يراه أحد ، ومشى كالحیوان الأعجم بخطوات متثاقلة إلى الفندق ، ووقف بازاء بابه الرئيسى فى تذلل وخضوع مدة ساعة دون أن يسترعى التفات أحد ، وأخيراً لمح أحد الحمالين فذهب لإحضار المدير ، ولما رأى الغريب المدير مقبلاً أضاءت وجهه لمعة من السرور .

قال المدير فى رفق وإشفاق :

— ماذا تريد يا بوريس ؟

فقال متردداً وبألفاظ متعثرة :

— معذرة يا سيدى ، كل ما أريد معرفته هو هل تتاح لى العودة

إلى وطنى ؟

فأجابه المدير مبتسماً :

— نعم يا بوريس ستعود إلى وطنك

— غداً ؟

— ففارق الابتسام وجه المدير وبدأت عليه سياء الجد وقال :

— لا يا بوريس ، لم يحن الوقت بعد ، وستظل هنا حتى تضع

الحرب أوزارها

— ومتى يكون ذلك ؟ ومتى تنتهى الحرب ؟

— الله وحده يعلم ، ولا يستطيع أحد معرفة ذلك

— أيلزم أن أنتظر طوال هذا الوقت ؟ أليست هناك وسيلة أخرى ؟

— لا يا بوريس

— وهل وطني بعيد جداً ؟

— نعم

— على مسيرة أيام عدة ؟

— أيام كثيرة جداً

— ولكنني أستطيع السير ، وأنا رجل لا ينال مني الكلال ولا الإعياء

— لا تستطيع ذلك يا بوريس ، فهناك حدود أخرى لا بد من

اجتيازها قبل أن تتمكن من الذهاب إلى وطنك

فقال وقد استولت عليه الدهشة والاستغراب !

— حدود أخرى ؟

ثم استرسل في إصرار عجيب :

— إنني أحسن السباحة .

فلم يستطع المدير أن يمتنع عن الابتسام ، ولكنه تألم لمصابه وقال له

في رفق :

— لا يا بوريس ، لا تستطيع ذلك ، فالحدود هنا معناها بلاد أجنبية ،

وأهلها لا يسمحون لك بالمرور

— ولكنى لا أسوء أحداً ولا أضرب إنساناً ، وقد أُلقيت سلاحى ،
أتراهم يرفضون أن يسمحوالى بالعودة إلى زوجتى عندما أتوسل إليهم
باسم المسيح ؟

فأربد وجه المدير وامتلأت نفسه مرارة وألماً وقال :

— لا . هم لا يسمحون لك بالمرور ولو توسلت بالمسيح ، إن الناس
لا يعملون الآن بوصايا المسيح

— ولكن ماذا أصنع ياسيدى ؟ أنا لا أستطيع البقاء هنا ، حيث
لا يفهمنى أحد ، ولا أستطيع أن أتفاهم مع الناس
— ستتعلم ذلك فى الوقت المناسب

فهمز رأسه وقال :

— لا ياسيدى ، فإنى لست قادراً على التعلم ، ولست أحسن غير
فلاح الأرض ، فماذا أستطيع أن أصنع هنا ؟ إنى أريد الذهاب إلى بلادى ،
أرئى الطريق .

— لا طريق هناك يا بوريس

— ولكنكم ياسيدى لا تستطيعون أن تمنعوا عودتى إلى زوجتى
وأولادى ! أنا لست جندياً الآن !

— إنهم يستطيعون منعك يا بوريس

— ولكن القيصر ؟ إنه بلا شك سيعيننى

وقد ذكر اسم القيصر باحترام شديد ، وأومض في نفسه الأمل عند
ما نطق باسمه

— لا قيصر اليوم يا بوريس ، لقد خلع

— لا قيصر اليوم ؟

ونظر إلى المدير نظرة بلهاء ، وانطفأت في نفسه آخر شعلة من الرجاء ،
واختفى البريق من عينيه ، وقال وقد استولى عليه الإعياء

— أهكذا لا أستطيع العودة ؟

— لم يحن الوقت بعد ، ويلزم أن تنتظر يا بوريس

— هل يطول ذلك ؟

— لا أدري

فازداد وجهه تجمهاً وانقباضاً وقال :

— لقد انتظرت طويلاً ، وكيف أستطيع الانتظار ؟ داني على

الطريق فاني محاول العودة

— لا طريق يا بوريس ، سيقبضون عليك عند الحدود ، امكث

هنا ، وسنبحث لك عن عمل

— هنا لا يفهمونني ولا أفهمهم ، أنا لا أستطيع البقاء ، ساعدني

وخذ بيدي

لا أستطيع يا بوريس

— ساعدني يا سيدي لأجل خاطر المسيح ، ساعدني وإلا فقدت الأمل

— لا أستطيع مساعدتك يا بوريس ، فالناس اليوم لا يساعد بعضهم بعضاً

ووقف الاثنان وكل منهما يحدق في عيني الآخر ، وطوى بوريس قبعته بين أصابعه وقال :

— لماذا ساقوني من ديارى ؟ لقد قالوا إن على أن أحارب من أجل روسيا والقيصر ، ولكن روسيا بعيدة وبعيدة جداً ، والقيصر ، ماذا قلت عما فعل به ؟

— لقد خلعه

— لقد خلعه — وأعاد هذه الكلمة في غموض ولبس — ماذا أصنع ياسيدي ؟ يلزم أن أعود إلى بلادى ، إن أولادى سيكون من أجلى ، أنا لا أستطيع الحياة هنا ، ساعدنى ياسيدي ، اصنع معروفاً وساعدنى !

— لا أستطيع يا بوريس

— أليس ذلك فى وسع أحد !

— ليس ذلك فى وسع أحد الآن

فأطرق الروسى مكروباً محزوناً ، ثم قال بصوت خفيض : « شكراً لك ياسيدي » وانصرف عائداً فى طريق الحانة ولكنه لم يدخلها ، وإنما اتجه إلى السلام المفضية إلى البحيرة

وتنهذ المدير الطيب القلب وعاد إلى عمله والألم يحز فى نفسه ، وشاءت المصادفة أن يكون الضياد الذى أنقذ الروسى من البحيرة هو نفسه الشخص

الذى وجد فى الصباح جثة الغريق، فقد لف الهارب بعناية الملابس المستعارة
ووضعها مع القبعة على الشاطئ، وخاض الماء عارياً كما خرج منه
كان اسم هذا الغريب مجهولاً، فلم تنصب له لوحة تذكارية، وإنما
أقيم على ضريحه صليب خشبي لا يحمل اسماً



آسر حدون ملك آشور

أو وحدة الحياة

(للروائي الروسي العظيم تولستوى)

(١٨٢٨ — ١٩١٠)

غزا آسرُ حدّون ملك آشور ديار الملك ليللى ، ودمر بلاده تدميراً ، وتركها طعمة للنيران ، واستأسر سكانها جميعهم وساقهم مصفدين فى الأغلال ، وأطاح رؤوس المقاتلة ، وأهلك بعض الزعماء ، ومثل بالباقيين أفضع تمثيل ، وحبس الملك ليللى نفسه فى قفص

وبينما كان الملك آسر حدّون مستلقياً فى فراشه وهو يفكر فى ابتداع طريقة لقتل الملك ليللى سمع فجأة ركزاً على مقربة منه ، ولما فتح عينيه أبصر شيخاً طاعناً فى السن ذا لحية بيضاء منسدرّة تشع عيناه وداعة وحناناً .

وقال له الشيخ : أنت تفكر فى قتل الملك ليللى

فأجابه آسر حدّون : نعم أريد ذلك ولكنى لم أهتد بعد إلى طريقة

لتنفيذه

— ولكن انت نفسك ليللى

— كلا هذا غير حق ، إن ليللى هو ليللى وأنا أنا

— أنت وليللى شخص واحد ، وإنما أنت تتوهم أنك

لست ليللى وأن ليللى ليس إياك

— ماذا تعنى بذلك ، هأنذا مستقلق على فراشى

الوثير وحولى من رجالى والموالى عبيد خاضعون وإماء طائعات ، وغداً
سأولم وليمة لأصدقائى كما فعلت اليوم ، فى حين أن ليللى محبوس كالعصفور
فى القفص ، وغداً سيخزق ويظل فى وصب مندلق اللسان حتى تزهق
روحه وي طرح للكلاب توسع جسده تمزيقاً

— ليس فى متناول قدرتك أن تفعلك بحياته

— ولكن ما حال الأربعة عشر ألفاً من جنوده الذين أفنيتهم ورفعت
من رمهم تلالاً ، وإنى ما أزال حياً ولكنهم الآن لا وجود لهم ، ألا ترى
فى ذلك دليلاً واضحاً على أنى أستطيع أن أنهب الأعمار وأمحو الحياة ؟

— ولكن من أين جاءك أنهم غير موجودين ؟

— لأننى لا أراهم ، وفوق ذلك إنهم قد تعذبوا ، وذاقوا الغصص والآلام
ولكننى لم ألق عذاباً ولم أكابد ألماً ، ولقد كان ذلك نقمة عليهم ونعمة لى
— هذا يبدو لك كذلك ، وأنت إنما عذبت نفسك ولم تعذبهم

— إنى لا أفهم حديثك

— أتريد أن تفهم ؟

— نعم أريد ذلك

— إذن تقدم هنا : وأشار إلى حوض متسع متأق بالماء

فنهض الملك ودنا من الحوض

— اخلع ثيابك وادخل الحوض

ففعل آسر حدّون ما أمره به الشيخ

وقال الشيخ وهو يملأ الجرة ماء : « عند ما أصب عليك الماء غطس رأسك » وأمال الشيخ الجرة على رأس الملك ، وأخنى الملك رأسه حتى صار تحت الماء

أخذ الملك آسر حدّون بعد ذلك يشعر بأنه أصبح شخصاً آخر غير آسر حدّون ، ولما أحس بأنه ذلك الشخص الآخر رأى نفسه مستلقياً على فراش فاخر وإلى جانبه امرأة حسناء لم يكن قد رآها من قبل وإنما أدرك أنها زوجته ، وهبت المرأة وقالت له :

« زوجي العزيز ليللى ! لقد أنهكت مجهود الأمس وقد نمت أكثر من المعتاد وقد حرصت على راحتك ولم أوقظك ، ولكن الأمراء ينتظرونك الآن فى البهو ، فالبس ثيابك واخرج لهم »

ففهم آسر حدّون من هذه الكلمات أنه ليللى ولم يستغرب ذلك وإنما عجب كيف لم يدر ذلك فى خلده من قبل ، ونهض من فراشه وارتدى ملابسه وخرج إلى البهو حيث كان الأمراء ينتظرونه

وحيا الأمراء ملكهم ليللى ، وألصقوا جباههم بالأرض ، ثم رفعوا

رؤوسهم بعد أن ألقى عليهم كلمة ، وجلسوا أمامه ، وشرع أكبر الأمراء
 سناً يتكلم قائلاً : « إنه أصبح غير ميسور احتمال إهانات الملك أسر حدّون
 وإنه يلزم أن تعلن عليه الحرب ، ولكن ليلى خالفهم ، وأمر بإيفاد الرسل
 للاحتجاج على أعمال الملك أسر حدّون ، وصرف الأمراء من حضرته ،
 واختار بعد ذلك جماعة من الأعيان ليكونوا سفراء ، ولقنهم ما يقولونه
 للملك أسر حدّون ، ولما أنجز أسر حدّون عمله — وكان يشعر بأنه ليلى —
 امتطى جواده وانطلق ليصطاد الحمر الوحشية ، وأصابه التوفيق فقتل بيديه
 حمارين وحشين ، ولما عاد أدراجه إلى قصره أولم وليلة لأصدقائه وشاهد
 رقص الجوارى ، وفي اليوم التالى ذهب إلى البلاط حيث كان ينتظره
 مقدمو العرائض وأصحاب الدعاوى والأسرى المجلوبون للمحاكمة . وهناك
 فصل كعادته فى المسائل المعروضة عليه ، ولما أتم عمله وقام بواجبه اقتعد
 صهوة جواده ، وتوجه للصيد ، وكان رياضته المحبوبة . وأسعفه الحظ
 فصاد لبوة عجوزاً معها شبلها ، وبعد الصيد أولم وليلة لأصدقائه وشاهد
 خلالها الرقص ، وسمع عزف الموسيقى ، وقضى ليلته مع الزوجة التى يحبها .
 وهكذا كان وقته مقسماً بين واجباته الملكية والمتع والمسرات ، وقضى
 أياماً وأسابيع ينتظر عودة رسله الذين أوفدهم إلى الملك أسر حدّون الذى
 كانه يوماً ما ، ولم تعد الرسل إلا بعد مضى شهر ، ورجعوا وقد جدعت
 أنوفهم وصلت آذانهم ، وأمرهم الملك أسر حدّون أن يبلغوا الملك ليلى أن
 ماصنع بهم سيصنع بالملك ليلى نفسه إذا لم يبادر بارسال الجزية من الفضة

والذهب وخشب السرو والحضور بنفسه ليقدم الطاعة للملك أسرحدون .
 فجمع ليللى - أسرحدون سابقاً - الأمراء وشاورهم فى الأمر فأشاروا
 عليه جميعهم بأن لا مناص من الحرب ومهاجمة الملك أسرحدون قبل أن
 يغزؤهم فى عقر دارهم ، وأقرهم الملك على ذلك ، وسار فى طليعة الجيش وبدأ
 الجهاد ، وكان يركب كل يوم ليستنهض عزيمة رجاله ويثير حميتهم ، وفى
 اليوم الثامن من مسيره التقى جيشه وجيش الملك أسرحدون فى واد متسع
 يشقه نهر ، واستمر القتال واستبسل جيش الملك ليللى ، ولكن ليللى
 - الذى كان أسرحدون سابقاً - رأى جيش العدو يزحف من سفوح
 الجبل فى عدد النمل حتى غص به الوادى وتغلب على جيشه ، فطار فى عربته
 الحربية إلى بهرة المعركة ، وأثنى فى العدو إثنائاً ، وبطش بهم بطشاً
 ذريعاً ، ولكن جيش الملك أسرحدون كان يفوق جيشه عدداً ، وشعر
 ليللى بأنه قد جرح ووقع أسيراً ، وطوى تسعة أيام فى سفر مع سائر الأسرى
 مكبلاً بالقيود وحوله جند أسرحدون ، وفى اليوم العاشر دخل نينوى
 ووضع فى قفص ، وكان لا يبالى السغب ولا ألم الجراح ، وإنما كان يحز
 فى نفسه عار الهزيمة والاحساس بالعجز ، ورأى أن كل ما يستطيعه فى هذا
 المأزق هو أن يحرم عدوه سرور رؤية آلامه ، ولذا صمم على أن يحتمل
 صابراً كل ضروب التعذيب وصنوف الآلام ، وأمضى فى قفصه عشرين
 يوماً ينتظر الإعدام ، ورأى رجال حاشيته وأصفياه وأقاربه يقادون إلى
 الموت ، وكانت همهمتهم تخترق صماخ أذنه ، وكان أحييهم يشق سمعه ،

فبعضهم قطعت أيديهم و بترت أرجلهم ، والبعض سلخت جلودهم أحياء ،
وقد احتمل رؤية ذلك دون أن يظهر توجعاً أو رثاء أو تفزعاً ، ورأى زوجته
وريحانة قلبه مقيدة بالسلاسل ، يقودها اثنان من الخصيان السود وعرف
أنها مسوقة إلى الملك أسرحدون ، واحتمل ذلك بلا تذمر ولا تأفف ، ولكن
أحد الجنود الموكلين بحراسته قال له : « أنا مشفق عليك يا ليللى ، لقد
كنت بالأمس ملكاً فانظر ماذا صار إليه أمرك » . ولما سمع ليللى هذه
الكلمات تذكر ملكه الضائع فأمسك بقضبان القفص وضرب رأسه فيها
محاولاً الانتحار ، ولكن لم تكن به قوة على القيام بذلك فأنّ من الألم وغلبه
اليأس وارتقى في أسفل القفص .

وحضر اثنان من الجلادين وفتحوا باب القفص وأخذوا في تكتيفه ،
وقاداه إلى مكان الإعدام ، وكان مخضباً بالدماء ، ورأى ليللى خازوقاً يقطر
منه الدم ، وقد ابتزعت منه جثة أحد أصدقائه فعرف أنه مهياً لقتله ،
ونزعوا ملابسه ، فهاله نحف جسمه الذى كان قوياً جميلاً ، وحمله الجلادان
وكانا على وشك وضعه فوق الخازوق .

وفكر ليللى فى الموت والعدم ونسى اعتزامه أن يظل إلى النهاية محتفظاً
بهدوئه قانياً شجاعته ، وارتفع صوته بالبكاء والنحيب ، والتمس الرحمة
دون أن يصغى لشكاياته أحد .

ولكنه فكر أخيراً « هذا لا يمكن أن يكون ولا بد أن أكون فى
نوم عميق ، ولا بد أن يكون ما أنا فيه حلم رهيب » وحاول اليقظة من

النوم ، وما عثم أن استيقظ ولكنه لم يجد نفسه أسرحدون ولا الملك ليللى ، وإنما وجد نفسه نوعا من الحيوان فعجب لذلك ، وكان أشد ما يثير عجبه هو أنه كيف لم يعرف ذلك من قبل .

كان يرعى فى واد معشوشب ، ويمزق الكلاء بأسنانه وأنيابه ويطرد الذباب بذنبه المسترخى ، وكان يمرح حوله جحش أشهب طويل الساقين منمر الظهر ، ثم انطلق يعدو إلى أسرحدون ولكنهز تحت بطنه بفمه الناعم المستدق ملتصقا بالضرع ، ولما أصابه أخذ يتشرف منه ترشفاً متصلاً وأدرك أسرحدون أنه أتان ، ولم يدهشه ذلك ولا أحزنه ، بل سره أن يرى حياته نامية سارية فى ذريته ، ثم سمع حوله خفيفاً وأحس بسهم صارده نفذ حده المسنون من الجلد إلى اللحم وشعر بألم مرمض ، ونزع أسرحدون — الذى كان فى نفس الوقت أتاناً — الضرع من فم الجحش وأرخص أذنيه وانطلق يعدو الى العانة التى ضل منها يتلوه الجحش ، ولما قارب العانة التى أجفلت أصاب سهم آخر رقبة الجحش واصمأه مخترقاً الجلد إلى اللحم فزحر زحيراً مؤلماً واقعى على ركبتيه ولم يستطع أسرحدون أن يتركه وظل واقفاً إلى جانبه ، ونهض الجحش مترنحاً على سيقانه الهزيلة وسقط من الإعياء ووثب إليه الرجل واحتز رأسه .

ففكر أسرحدون وغغم لنفسه « هذا لا يمكن أن يكون لا بد أن أكون فى حلم . وحقيقة أنى لست ليللى ولست الحمار الوحشى ولكنى أسرحدون . وبذل مجهوداً ليستيقظ ويفيق من حلمه ، وصاح ورفع رأسه

فى نفس الوقت من الحوض ، وكان الرجل المسن ما يزال واقفاً إلى جانبه
يصب على رأسه آخر قطرة من الجرة

فقال أسرحدون : « لقد تأملت كثيراً وأحسبني قضيت فى تلك الآلام
ردحا من الزمن »

فقال له الشيخ : « كلام يطل عهدك بالألم ، لقد غمست رأسك فى
الماء ورفعته وانظر إلى الجرة ترَبها بقية الماء فهل تدري الآن ؟

فلم يجر أسرحدون جوابا ونظر إلى الشيخ نظرة ملؤها الرعب ، واسترسل
الرجل الشيخ يقول : « أتدرى الآن أن ليللى هو أنت وأن الجنود الذين
أعدمتمهم هم أنت ؟ وليس الجنود فحسب وإنما الحيوانات التى ذبحتها وأنت
تصيد ونهشت لحما هى كذلك أنت ، ولقد جرى فى وهمك أن الحياة
مقصورة عليك وحدك . ولكنى رفعت عن باصرتيك حجاب الوهم وجعلتك
تدرك أنك باساءتك إلى الغير إنما تسىء الى نفسك ، والحياة واحدة فى
الجميع ، وحياتك جزء من نفس هذه الحياة العامة، وتستطيع فى ذلك الجزء
من الحياة الممنوح لك أن تجعل الحياة أحسن أو أسوأ وتنمىها أو تنقصها
وتستطيع أن تسمو بالحياة فى نفسك وأن تحطم الحواجز التى تفصل حياتك
عن حياة الغير ، وإذا أحببت للغير ما تحب لنفسك واعتبرتهم مثلك زاد
نصيبك من الحياة ، وأنت تنقص حياتك إذا حاولت أن تزيدها على
حساب الغير ، وتحطيم حياة الغير من وراء طاقتك ، وحياة من سفكت
دماءهم ومثلت بهم قد اختفت عن ناظريك ولكنها لم تنعدم، ولقد توهمت

أنك تطيل حياتك وتختزل حياتهم ولكن هذا ليس في وسعك ، والحياة لا تعرف الزمان ولا المكان ، وحياة لحظة وحياة آلاف السنين وحياتك وحياة الكائنات جميعها خفيها وظاهرها متساوية متعادلة ، ومحو الحياة أو تبديلها غير ممكن لأن الحياة هي الشيء الوحيد الموجود »

ولما نطق الشيخ بذلك اختفى

وفي صباح اليوم التالى أصدر الملك أسرحدون أوامره بإطلاق سراح الملك ليلالى والأسرى جميعهم ومنع عقوبة الاعدام
وفي اليوم الثالث استدعى ابنه اشور بانينبال وسلمه صولجان الملك وانطلق إلى الصحراء ليفكر فيما تعلمه ، وأخذ بعد ذلك يسيح في المدن والقرى ويدعو الناس إلى معرفة أن الحياة واحدة وأنهم عندما يلحقون الأذى بأحد إنما يضرّون أنفسهم .



لحن الشيطان

عن الروائي النمساوي فيليكس دورمان [١٨٧٦ - ١٩٢٨]

(هذه القصة قائمة على واقعة حال حقيقية حدثت بين الموسيقار الكبير تاريتيني وبين ابنة شقيق أحد الكرادلة ، وكان تاريتيني قد تزوجها سرّاً)

في صيف سنة ١٧١٤ أقام الموسيقار الكبير « فيراسيني » حفلة اجتمع فيها أشراف فينسيا لإطرائه والإعجاب بفنه ، وتبارى أعضاء مجلس الشيوخ وكبار الأعيان والأشراف في امتداحه وإكبار شأنه والإشادة بفنه وأعلنوا أنه سيد رجال الفن قاطبة في عصره

وكان الشاب الصغير يوسف تاريتيني يمشی عائداً إلى مسكنه كسير القلب مخفوقاً باليأس ، وكان يشعر بأن في نجاح فيراسيني العظيم إهداراً لكرامته ، لأنه كان موسيقاراً مثله إلا أنه مجهول المكانة غامض الشأن تتقد في نفسه نيران الطموح وهو صابر قلق ينتظر بزوغ نجمه وتألّق شهرته

وكانت حبيبته الجميلة التي فرت معه من « أسيسي » وتركت فيها والديها وخطيبها وسمعتها الحسنة تحاول عبثاً أن ترفه عنه وتدخل السرور على قلبه ، وجرحه عطفها وحبها فدفعها عنه في قسوة وخشونة ولم يحرص على أن يتسلى أو يطيب نفساً ، كان يريد أن يخلو إلى يأسه في ظلمة لا تنيرها لمعة واحدة من لمعات الضوء ، فانسحبت مادلتا لومبارديني إلى

غرقها غضبي مجروحة الإباء ، وبقى تاريتني وحيداً ، ففارقته البقية الباقية
من شجاعته فارتقى على أرض الغرفة باكياً نادياً حظه لاعناً حياته وفشله
« كان يجب أن أصير معلماً من معلمى اللعب بالسيف أو جندياً أو قسيساً
كما أراد والدى بدلاً من أن أكون موسيقاراً ، وكيف أومل أن أعرف
إلى جانب أستاذ مثل فيروسيني ؟ وأى جنون هذا الذى جعلنى أفكر فى
الإقدام على إقامة حفلة فى نفس المدينة التى أقام فيها حفلته وفى نفس الأسبوع
ونفس القاعة ؟ ولو كنت أعلم أن هذا الأستاذ هنا لجئت فى وقت آخر ،
والآن قد أضعت نقودى بقدمى إلى هنا واستئجرت القاعة ، وقد أعلنت
عن الحفلة ، ولقد ذهب كل ما كان معى وخاطرت بكل شئ ، فإذا
فشلت فقد قضى على أنا ومادلنا ، يجب أن أعرف وأن أحرز نجاحاً »

ثم دعا الخادم وأمره باستحضار نبىذ قوى ، ثم أخرج قيثارته وشرع
يجرب ، ولكن أنغام فيراسينى كانت لا تزال فى ذاكرته ، وكان عزفه فاتراً
لا روح فيه وتافهاً فارغاً لا يعبر عن هم مبرح ولا انتصار باهر ولا قداسة
سماوية أو روعة جهنمية ، كان مجرد عمل آلى واتباع للطرق المبتذلة المطروقة
فتراخت يده وهو يتامن اليأس ، وأخذ يبكى مثل الطفل الصغير وهو حائر
قد التاث عليه أمره

وكانت الليلة من ليالى الصيف المبكر الذى أظلم فينيسيا ، وكان المنزل
قد خيم عليه السكون التام فلا تسمع فيه إلا صوت رشاش القوارب أو صوت
إنذار يصعده أحد الملاحين ، ونفذت إلى الغرفة من النافذة الصغيرة أشعة
ضئيلة منبعثة من نور الكواكب ، ومرت ساعات وتاريتنى الصغير لا يزال

جالساً على كرسيه عاكفاً على التفكير في حظه المنكود .

ثم هب عليه نسيم ليليل وشعر بوجود أحد في الغرفة ، فصعد طرفه
فرأى زائراً غريباً كأنه قد برز من بطن الأرض ، كان هذا الشبح لا يكاد
يظهر في الظلام ، وكان لا يبدو منه سوى وجهه ، وكان نحيلاً ذا شفة
مقوسة ساخرة وعينين تشتعلان في الظلام

— من أنت وماذا تريد ؟ ومن أين جئت إلى هنا ؟

— ليس لهذا أهمية ، ولم آت هنا لأقدم تقريراً عن نفسي وإنما جئت
لألقى عليك بعض الأسئلة

وكان في صوت هذا الدخيل من دلائل الهدوء وامتلاك النفس وقوة
الشخصية ما جعل تارتينى يكظم غضبه

— أنت من الهواة ، وتريد أن تصبح موسيقاراً عظيماً ذائع الصيت ؟
— نعم أريد ذلك كله

— ولكن عزفك فاتر ، وأنت تعزف بأصابعك ، ولا قلب ولا روح
في عزفك ، وليس من نصيبك تلك النعمة المختلجة الحيوية التي تهب الحياة
للموسيقار ، وليس في نفسك شيء مستعص على التعبير تحاول جهداً
الافصاح عنه ، ولم تستحوذ على جوارحك بعد عاطفة غلابة ، ولذا لا تستطيع
أن تستأسر نفوس الغير وتختلب ألبابهم ، ولقد أصغيت إلى عزفك فإذا
به عزف طفل ناضب الشخصية ، وسيصفرون لك ويحقرن أمرك إذا اجتأت
على الظهور ، وقد يكون خيراً لك أن تنهى حياتك الموسيقية باغراق نفسك
في إحدى الترع

فكان جواب تاريتنى على هذا الكلام القاسى أنه مكتومة
— أقول أغرق نفسك فى إحدى الترع ، إلا إذا اعتزمت أن تسلك
طريقة تكفل لك الفوز

— تكلم

فأخذ الزائر يقول فى بطاء وتردد : « هل تريد أن تضحى لتنال النجاح
دفعه واحده وتصير رجلاً عظيماً موفقاً » ؟
— أنا مستعد لأية تضحية .

— حتى لأعظم تضحية ؟

— نعم

— اعلم أن الإنسان لا يكون له قلب الفنان إلا إذ فقد قلب الرجل ،
أو بتعبير أوفى حتى يضرس قلبه بأنياب ويوطأ بالأقدام ، فهل تدع قلبك
يسحق ؟

— أنا لا أفهم ما تريد

— لقد رأيت معك شابه صغيره السن

— نعم هى حبيبتي

— أنا أحبها ، فهل تضحى بهذه الفتاة ؟

— ولكنى أحب مادلتنا وهى كذلك تحبني

— هذا هو ما يفتننى

— وماذا يحدث لها ؟

— ألم أقل لك إنى أحبها ، وعلت وجهه الشاحب الهزيل ابتسامة شيطانية ، وقال : ما عليك إلا أن تقول نعم أو لا والباقي سأنفذه ، وسأدبر أمرها ما دمت لا تعترض طريقى

— ولكنك تطلب منى تضحيه مخيفة

— أتريد أن تصير شهيراً أم لا

— نعم ، وتصيب على جبينه العرق البارد ، وتشبث بمقعده خوف السقوط ، وقال : على أننى لو وافقت فإن مادلتنا سوف لا توافق ، إنها تحبى وقد تبعتنى برغبتها ، وستصير بأئسة ، وستخافك إذا دنوت منها كما أخافك أنا الآن ، وستقاوم وسيكون كل مجهودك عبثاً

هذا ما على القيام به وسأعرف كيف أتغلب على مقاومتها ، ولقد تغلبت على كل امرأة حتى الآن

وعرت الشاب الصغير رعدة جعلته ينتفض من رأسه إلى قدمه ، ثم همس همساً لا يكاد يسمع : « أشعر بأنى أعطى حبيبتى ما دلنا للشيطان » — ومن يؤكد لى أن هذه التضحية لا تذهب عبثاً ، وأنها ستكون فاتحة نجاحى ؟

— كلمتنى ، وهذا — وهنا سقط عند قدم تارتينى كيس من الجلد حافل بقطع العملة الذهبية ، والشئ الجوهري هو أن غداً يوم انتصارك ، وسيظهر منك فنان ملهم مكان الصانع الفاتر ، وسوف لا تصحب ما دلنا معك إلى الحفلة ، وأطلب إليها أن تبقى فى المنزل لتصلى وتدعوك ، واقفل

عليها غرفتها وأعطني مفتاحها ، وفي الساعة التاسعة عندما تكون مقبلاً على
عزفك سأطرق غرفتها

نخباً تارتيني وجهه بين يديه ، أية فكرة رهيبة هائلة ! بينما أنا أعزف ...
— نعم بالتأكيد ، بينما تعزف إذ ينكسر قلبك ويتصدع وتتفتح من
قلبك الكسير زهرة الفن الصادق القرمزية ، والآل هل تضحي بمادلنا لقاء
هذا الثمن أولاً ؟

فقال تارتيني بتمتمة يسيرة غير مسموعة :

— نعم سأفعل

فاختفى الزائر كما جاء دون أن يسمع له ركزاً

اجتمعت أشرف فينيسيا في قاعة « بلازو كليرجي » وكانت الأنوار
تتألأ وللثياب المزركشة خفيف ، وكانت المراوح تحرك الهواء في رقة وقد
غصت القاعة بأحاديث السمر وضحكات السرور والاستبشار ، ثم ساد
الصمت فجأة وظهر على المسرح شاب نحيف مشرق الوجه بنور الوحي
والإلهام وهو في رداء أسود ، وكان عزفه في أول الأمر عادياً محتجزاً ، وكانوا
يصفقون له تصفيقاً معتدلاً ، ولكن لما اقتربت الساعة التاسعة ، استولت
عليه روح غريبة ، وكأنما اندلعت النيران من قيثارته فصارت نغماتها شديدة
عاصفة جائشة بالوجدان متفجرة بالعواطف ، وصدع قلوب السامعين بألحانه
الساحرة الباطشة وتجلت في عزفه كل توسلات الحب وشفاعاته وهموم
الموت ومراراته ، وكان يسرى في أنغامه الموت واليأس والاحتقار الشيطاني
الذي يفوق ما في طوق القلوب البشرية

كان يبدو عليه أنه في غيبوبة ، إذ كانت عيناه جاحظتين شاخصتين باستمرار إلى الفراغ ، وكانت ترتسم على وجهه معان مختلفة متغيرة ، كان يضحك وينتحب في وقت واحد ، وقد بللت الدموع قيثارته ، وكان يغمغم غمغمة غير مفهومة ويعزف ، ولم يعرف أحد ما هو صانع ، وإنما كانوا يحسون أنهم يسمعون ألحاناً من بدائعه ومبتكراته ، وكانت أنغامه ترتفع وتسمو ثم تهوى وتنتشر مثل أسراب بنات الجان الخبيثة بضحكتها الصارخة الساحرة الداعرة ، وكان يدوى بين القطع الحزنة لحن من السرور الشيطاني والألم الدامي .

وبينما كان الجمهور يحملق في هذا الفنان تراءت لعينه صورة الغريب يدخل إلى غرفة مادلنا وهي راكعة تصلي ، وكان يسمع صراخها « الشيطان » . ورأى الغريب يجذبها وهي تقاوم إلى النهاية ثم تقضى نحبها من الماراة والخوف في أحضان هذا الرجل الذي أسلمها هو إليه متجراً بها لنجاحه وشهرته .

ثم اشتعل قلبه وغلت مراجله وتقلص وشعر بأن مخالب الشيطان واقعة به وأنها مزقت صدره فصرخ وسقط مغشياً عليه فوق الأرض فارتفع صوت فزع من الجمهور المسحور ونسى فيروسيني الموسيقار العظيم وارتفعت أصوات « تاريتني » المقدس ! ، « تاريتني » العظيم ! وغصت بها القاعة . واجتمعت حوله أجمل نساء فينيسيا واجتهدن في إنعاش الموسيقار الذي جاد على فنه بروحه ، ولم يرضن بها حتى خذلته قوته ، وعاد تاريتني في زورق « موروسيني » النبيل إلى مسكنه الحقير القريب من حي اليهود ،

وكان قد تركه منذ ساعات وهو فنان مجهول وعاد إليه الآن تاريتني الشهير
إمام الفن ومالك ناصيته .

وخيل إليه أنه قد مرت سنون على سفره ، وأخذ يزحف على السلام
من الكلال والاعياء ، وفكر هل يجد مادنا على قيد الحياة رغم تدنيس
شرفها ! وربما كان هذا الغريب الكهل المتوقد العينين الشيطاني الابتسامة
والصلب الإرادة رجلا آخر غير الشيطان ! وكانت كل القصص الخرافية
التي سمعها منذ طفولته تحوم في عقله وهو يجهد في صعود السلام وقد كاد
يغمى عليه من حمى النجاح وثورة العواطف والتعب ، ولا يجسر غير
الشيطان على أن يقذفه بهذا الاغراء الفظيع الذي سول له بيع محبوبته !
ومثلت لعينيه الأنعام التي أثارها ، وكانت أنعاما مترنحة مغرية شيطانية !
ثم تقدم إلى غرفته فوجد على مكتبه خطابا فوقه شمعدان يشتعل ،
وكان الخطاب مكتوباً بخط مادنا وفيه !

« كان الكونت سكرابي صديق أسرتي القديم يخبرني دائماً أنك وغد
كسائر الفنانين وأنت مثلم تشتري الشهرة بالحب قانعا مسرورا فلم أصدق
وتبعتك ، وتسمعت خلف الباب لما حدثك ، وأنا أحتقرك ولا أريد أن
أراك مرة أخرى .
مادنا

حاشية — سيأخذني الكونت سكرابي إلى والدي اللذين سيصفحان
عني للخطأ الذي غطى على بصري وجعلني أصغى لك وأتبعك ، فلتصبح
عظيما وسعيدا إذا استطعت لقد كان حبي لك بمقدار ما انطوى لك عليه
الآن من الاحتقار .

أزمة الإثراء

عن الكاتب المجري كوزستولاني

لما اقترب منا كبير الخدم همس في أذني كورنيلياس استى الذي
دعاني لتناول طعام العشاء معه :

— اعطني سريعاً عشرين بنجوساً

فناولته إياها وقد عراني بعض الدهشة ، فدفع الحساب وقال :

— إنه لشيء عجيب !

— ما هو هذا الشيء العجيب ؟

— قولهم « الأزمة الاقتصادية » وفي وسع الانسان أن يقول إن

وفرة النقود هي التي أحدثت الأزمة ، وليس نقصها كما يتوهم الناس ... ،

وأنت من هواة البحوث اللغوية ، فهل تعرف اصطلاحاً معناه أن هناك

ظروفاً تكون فيها الثروة عبئاً ثقيلاً ؟

— هناك التعبير الفرنسي « حيرة الإثراء »

— هل له نظير في اللغة المجرية ؟

— لا

— شيء محزن وله دلالة ، ويظهر أن الحاجة إليه لم تنشأ بعد

ولما كنا عائدين إلى المنزل عند انبثاق الفجر ظل يتحدث في هذا الموضوع وقال : نعم إن الأزمة المالية شيء بغيض ، ولكن حيرة الثراء كذلك شنيعة ، ثم أضاف إلى ذلك متنهداً « إني أعرف ذلك حق المعرفة » فصحت قائلاً : « أنت » ؟

— نعم بلا ريب أنا ، لقد كان في حوزتي مبلغ ضخم من المال

— أنت ؟ ومتى كان ذلك ؟

— عندما ظفرت بثروة

— ثروة ؟ أنت ؟

— نعم أنا حقاً ، فقد ماتت عمّة لي بعيدة ، اسمها ماريّا تريزا انسلم ،

وكانت زوجة بارون ألماني كان يعيش في همبورج

— هذا أمر هام لم تخبرني به من قبل

— لا . . . كانت سني حينذاك تقارب الثلاثين ، ففي ذات يوم

تلقيت بلاغاً عن وفاة عمتي ، وأنها تركت لي ثروتها جميعها ، ولم يكن ذلك

غير منتظر ، ولكنني عجبت في بادئ الأمر لأنني كنت أعتقد أن لها ابن أخ

آخر ، وأن أملاً كما ستوزع بيننا ، ولكن هذا القريب الآخر مات في

البرازيل . . . أمعك سيجارة ؟

— ها هي

— ذهبت توّأ إلى ألمانيا ، وفي الحق أني كنت أتذكر عمتي بصعوبة ،

وقد صحبت والدي وأنا طفل عند ما ذهبنا لزيارتها ، وكانت تقيم في منزل

أنيق ، ولها مزرعة تتمثل فيها الكفاية والنظام ، وظلت خمس عشرة سنة لا أسمع عنها شيئاً ، وعند تقدير ثروتها اتضح أنها أكثر مما قدرت ، فبعد أن باعت كل شيء واستنزلت قيمة الضرائب والرسوم والمصروفات القانونية دفع لي أحد مصارف همبورج مليوني مارك

— مليوني مارك؟ كلام فارغ

— صحيح ! نتحدث عن أشياء أكثر أهمية من ذلك ، كيف حال

ضغط الدم عندك ؟

— لا تكن أحقر . استرسل . . .

— حسن ! لقد استبدلت الماركات بعملة مجرية ، ووضعته في صندوق

وعدت إلى بودابست ولم أغير أسلوب حياتي ، واستأنفت قرض الشعر ،

واحتطت في الأمر ، فلم يعرف أحد شيئاً عن ثروتي ، لأن معنى ذلك

القضاء على شهرتي شاعراً

— ماذا تعني بذلك ؟

— ألا تستطيع أن تفهم ؟ إن الأمر جد واضح ، ماذا عسى أن يقول

الناس عني ؟ وأنت تعرف تصور الناس للغنى . . . ففي بودابست مثلاً

كل من له مال يعتبر إلى حد ما سخيلاً ، ولماذا يكون للغني ذكاء وشعور

وخيال ؟ أريد بذلك أنك تعلم تمام العلم ما يقولونه ، وهذا ضرب من

الانتقام ، وهم لا يستطيعون أن يروا أن الطبيعة توزع المواهب والملكات

توزيعاً لا ضابط له ولا قياس ، وبصورة تبدو خالية من الرحمة ، والطبيعة

لا تعرف العطف ، وهى تجود بالعبقريّة على من لا يملكون فى الدنيا شيئاً
آخر ، وكأنّها تعوضهم عما فقدوا ، ولقد كنت ولا أزال بوهيميا ، وقد
أكبرت تقاليد عشيرتى ، ولذا ظلت بعد أن عدت إلى بودابست ومعى
الصندوق المملّان بالأوراق المالىة أغشى ذلك المقهى الذى كنت من رواده ،
وكنت أظهار بأننى عاجز عن دفع ثمن ما آكله ، وكنت أتعمد أن ألبس
بنيفة متسخة ، وكنت أحدث قطعاً وتمزيقاً فى نعل حذائى الجديد ،
وأنت تعذرنى ، فقد كانت شهرتى شاعراً مستهدفة للخطر

وفضلاً عن ذلك فإن أسلوب حياتى الذى ألفته كان يشوقنى وتطيب
له نفسى ، ولو عرف عنى أنى أحرزت ثروة لازدحم حولى الأصدقاء والأعداء
وظلوا من الصباح إلى المساء يدقون جرس منزلى ، ويقرعون بابى ، وعز
على أن أجد فرصة أخلو فيها بنفسى ، وأفرغ للكتابة والنظم

— ولكن ما ذا صنعت بعد ذلك بهذا المبلغ الجسيم ؟

— حسن ! كانت هذه هى المشكلة الكبرى ، وطبيعى أننى لم أجتريء
على أن أضع لى رصييداً وأفتح حساباً بأحد المصارف ، لأن هذا كان يجرى
وقد آثرت أن أخبئ الأوراق المالىة فى درج مكتبى بين مسوداتى ومخطوطاتى ،
وكنت أفتح الدرج فى كل مساء وأطيل النظر فى محتوياته ، وقد خالجتنى
مشاعر مختلفة ، وباطل أن أدعى أننى لم أكن مسروراً به ، لأننى أحترم
المال ، وأعرف معرفة تامة أن معناه الرغد والرفاهية والجاه والقوة وما إلى
ذلك ، ولكن الاحتفاظ بمثل هذا المبلغ الضخم كان عبئاً ثقيلاً ، وكنت

فى تلك الأيام كعهذك بى حزمًا وعقلا؁ فلم أقدم على شراء عربة؁ ولم أهر مسكنى القديم القذر إلى منزل آخر خشية أن أهرل مسؤولية جديدة؁ وأنت تعرف كراحتى للرفاهية وخفض العيش؁ وكنت أحب النبذ الرخيص والسجائر الزهيدة القيمة؁ وكذلك النساء الرخيصات

وبدأت أفكر تفكيرًا هادئًا منطقيًا؁ وكان عملى هو الكتابة والتحرير؁ وحتى فى تلك الأيام كنت أستطيع أن أجمع بقلى مبلغًا مناسبًا يكفى لأنفق منه؁ وقد أضفت لهذا المبلغ آخر يمكنى من أن أعيش مستقلًا مكفول الرزق طوال حياتى؁ وأنا من أسرة ليست طويلة الأعمار؁ وسمحت لنفسى بأن أعيش حتى الخامسة والستين؁ وقد بلغ الراتب الذى قدرته للانفاق منه فى مدى ثلاثين سنة أربعة آلاف ريال؁ وشعرت بأنى فى غير حاجة إلى المبلغ الباقى بعد ذلك؁ ولذا صممت على توزيعه

— بين من ؟

— كان هذا هو المشكل؁ فقد كنت وحيدًا كما تعلم؁ وليس لى

أقارب ولا اتصالات

— ألم تفكر فى أصدقائك ؟

— لم يكن لى أصدقاء حينذاك؁ ولم أكن قد لقيتك بعد

— هذا شعور طيب من ناحيتك !

— لم أكن بوجه عام أعرف إنسانًا أعنى به وأعطف عليه أكثر من

عطفى على رجل الشارع الجاهل ، وأرجو أن لا تسىء فهمى ، فلست من
كارهى البشر ، ولا ممن يمتقون الناس ، وإنما أنا أراقبهم وأنظر إليهم بما
يصح أن تسميه « الاستسلام الحزين » وخبرنى ماذا كنت تصنع لو
كنت مكانى ؟

— أظننى كنت أصنع ما يصنعه كل إنسان فى مكانك ، وهو أن
أهدى نقودى لأعمل من أعمال البر والإحسان .

— هذا هو نفس ما خطر لى فى بادىء الأمر ، وقد مر ببالى ملجأ
الأيتماء وملجأ إيواء العجزة والمرضى وذوى العاهات ، ولكننى فكرت فى
هؤلاء اللصوص الذين يختلسون أمثال هذه النقود التى توهب للفقراء
ويشترون بها مجوهرات لعشيقاتهم ، وسرعان ما أعرضت عن ذلك ، وبعد
ذلك داعبتنى فكرة جائزة أدبية على مدى واسع ، ويلزم أن أقرر أننى
رحبت بهذه الفكرة وتعلقت بها زمنًا ، ولكن سرعان ما نبذتها وتخلت
عنها لعلنى أن اللجان التى يكل إليها توزيع مثل هذه الجائزة تنحرف عن
القصد ، وتشوه الغرض الأصلى للجائزة ، فتمنح نقودى مجانين أدياء ،
وكان الإخلاص للأدب يقتضى قتلهم وإبادتهم ، وتعين على ظهور أدياء
مزيفين وكتاب مقعدين ، وأبصرت بعين عقلى فصولاً مقدمة فى المباراة
لنيل هذه الجائزة عن « تأثير الدراما اليونانية » وأدركنى اليأس والسأم
عند ما تأكدت أن مثل هذا السخف المزرى سيمثل وينتقل من جيل إلى
جيل حتى آخر الزمن كأنه لعنة رهيبة متوارثة ، ولذا أبغضت هذه الفكرة

واجتويتها ، وعرضت لى فكرة إعانة الكلاب والأطفال وأنت تعلم أنى
أكرههما كليهما .

— وعلى ماذا صممت فى النهاية إذن ؟

— صممت على أن أبدد نقودى بلا تدبر ولا حساب كما جاءتنى بغير
تدبر ولا حساب، وتخيلت لى صورة الأمبراطور الرومانى المأفون على صهوة
جواده ينثر النقود يمينا وشمالا بين الجماهير

— تريد أن تعطى كل من يلقاك نقوداً ؟

— لا لا أيها الكهل المسن ، إن الأمر لم يكن بمثل هذه البساطة ،
ولو أننى فعلت ذلك لعرف مكانى وذاع خبرى ، وتكاثر على المتملقون
والمنافقون ، ولما وسعنى أن أحتمل الجرائد والصحف والمجلات التى كانت
تصورنى بقولها « المحسن المعروف » وكنت حريصاً على أن يظل الأمر سراً
مكتوماً مهما كلفنى ذلك ؟

— وهل وفقت فى ذلك ؟

— نعم ولقد احتفظت لنفسى بمبلغ ٤٠٠٠٠٠٠ ريال ، وكان الباقى بعد
ذلك للانفاق والتبديد هو مبلغ ١٦٤٠٠٠٠ ريال ، وكان على — حسب
تقديراتى — أن أنفق مبلغ ٥٤٠٠٠ ريال سنوياً و ٤٥٠٠ ريال شهرياً ،
و ١٥٠ ريالاً يومياً ، وتسألنى كيف بدأت ، لقد كان الأمر فى ابتدائه سهلاً
هيناً ، فبعد إنجاز عملى اليومى فى المساء كنت أستخرج عناوين أسماء
أختارها بغير قصد من الدليل ، وأستحضر اذونات يريد كل إذن منها بمبلغ

١٥٠ ريالاً وأكتب عليها الأسماء بالآلة الكاتبة، وأرسلها هؤلاء الأشخاص
الجهولين ، وكنت أقوم بذلك غير عابئ أن كان الشخص الذى يرسل إليه
إذن البريد غنياً أم فقيراً ، فقد كنت أترك ذلك للصدفة، وحدث مرة أنى
أرسلت نقوداً لياسبر كوتنز أحد الأغنياء المعدودين

وكان الذين يتلقون أذوناتى يدهشون فى بادئ الأمر ويعجبون من أمر
هذا الشخص الخفى الذى يرسل اليهم النقود ويغدق الهبات ، ولكن بعد إعمال
الفكرة كانوا يرجحون ان هذه النقود قد أرسلها اليهم أحد أقاربهم أو أحد
ممن استدان منهم، وبعضهم كان يظن أن مرسلها أحد فاعلى الخير وصانعى
المعروف ، ولا بد أنى قد بدوت لفريق آخر منهم فى مظهر القوة العمياء
التي تخبط خبط العشواء ، أو الجنى الشقى ، أو الاله الموجود فى كل مكان
والقادر على كل شئ ، والذى يرسل الخيرات والبركات ، ولكن شاء سوء
الحظ أن ينكشف أمرى بعد انقضاء عام على ذلك

— أين ؟ فى مصلحة البريد ؟

— لا . لا . لقد كنت أكثر حذراً من ذلك ، وكنت أستعمل
الأولاد الصغار فى القيام بهذه المهمة ، وفى غالب الأحيان كنت أرسلهم من
الريف ، وفى ذات يوم أرسلت نقوداً إلى أحد مخبرى الجرائد اليومية ،
وكان قد سمع من قبل همساً عن تلك « الهدايا الخفية » وأنت تعرف ولوع
الناس بالقليل والقال ، مهما عرضهم ذلك للخطر ، وقد أخرجه ذلك عن
جادة العقل ، فأخذ يجمع المعلومات ، وينشر أحاديث بعض الذين تلقوا

هذه الهبات أو سمعوا عنها ، وأنشأ مقالا سخيلاً عنوانه « الغيث الذهبي »
ونشر صورة فوتوغرافية للكتابة الظاهرة على الإذن ، وقد افترض بذلك
أمرى ، وإن كانوا قد عجزوا عن رفع النقاب عن وجهى ، وأمسكت عن
إرسال الأذونات ، واستلزم الموقف البحث عن أساليب أخرى أدق وأخفى
— حقيقة أنى لم أستطع أن أثبت غرضك ، ولماذا لم ترسل المبلغ جميعه
إلى شخص واحد ليهدأ بالك ؟

— كانت تسهل إذ ذاك معرفتى

— لماذا لم تهبه المرأة التى أحببتها ؟

— لأن هذا ينطوى على إذلال لى ، وترى أننى سأحرص ما عشت
على هذا الوهم ، وهو أن النساء يحببنى لشخصى ، ويظهر أنك لم تدرك
غرضى بعد ، فقد استحوذت على فكرة توزيع هذه النقود ، ولكننى كنت
أود أن لا أوزعها طبقاً لنظرية « العدالة الإنسانية » أو امثال هذا الهراء !
وقد أردت أن أوزعها بطريق الصدفة ونوبات الحظ ، وتبعاً لخيالى ومجاراة
لوهمى ، أو جرياً على قانون الطبيعة ، وهى أعظم وأعجب من قوانين الإنسان ،
ولا أحسب الحياة منطقية ، ولا يود العقلاء أن تكون كذلك ، وقد شقَّ
على هذا العمل وحملنى هما ، فقد كان يضايقتنى ويغضبى أن يظل مثل هذا
المبلغ الضخم فى درجى لا أنتفع به ولا ينتفع به غيرى

وعند ما كنت أعجز عن صرف راتبى اليومى كان يملأ نفسى الندم
وتبكيك الضمير ، وكان عملى يزداد صعوبة يوماً بعد يوم ، وكان يحدث فى

بعض الأوقات أن يتجمع في درجى مرتب أربعة أيام أو خمسة وكنت في أمثال هذه الحالات أتحامق وأتباله ، وأتصرف بلا عقل ولا روية ، وقد ألقىت مرة ستمائة ريال في قبعة أحد المتسولين ، وانطلقت أعدو في الطريق ، ولكننى كنت لا أفعل ذلك إلا نادراً

— ولكن كيف تخلصت من نقودك بعد ذلك كله ؟

— بطرق كثيرة ، ولقد أصبح التخلص منها أصعب من الحصول عليها وحيازتها ، وأنا أمقت المبالغة ، ولكن يلزم أن أصارحك بأن الأمر كان يستدعى قوة وابتكاراً وبراعة وسعة حيلة غير عادية ، وقد عاقنى ذلك عن توجيه مجهودى جميعه لنظم الشعر ، فتأثر أسلوبى ، وفي ذات يوم كنت مسافراً ، ووقف القطار في إحدى المحطات الكبيرة ، فنزلت منه وأكلت تفاحة ، واشتريت بعض المقاتق ، وتحدثت مع النادل الذى كان يدفع أمامه مقصفاً صغيراً على عجلات ، وتريثت في دفع الثمن حتى هم القطار بالسير ، فألقيت في يد الرجل ورقة مالية كبيرة ، ووثبت إلى مكانى في القطار واختبأت به وتركته يبحث عنى عبثاً .

وفي فرصة أخرى كنت في أحد المقاهى ، فتركت ورقة مالية تحت الطبق الموضوع أمامى كأنى قد نسيته ، ولم أجتريء بعد ذلك على الاقتراب من هذا المقهى ، واشتركت في المكاتب التى تعير الكتب ، وكنت أرود كذلك المكاتب الحرة ، وأترك أوراقاً مالية بين صفحات الكتب التى أستعيرها ، وفي بعض الأوقات كنت ألقى نقوداً في الطريق أثناء

سيرى وأعدو بعد ذلك حتى يبهرنى الإعياء كأنى قد ارتكبت جرماً ،
واتفق مرة أنى فعلت ذلك فعثرت على النقود سيدة ترتدى ثياب الحداد ،
فعدت خلفى واقتفت أثرى حتى لحقت بى فأخجلنى ذلك وأخذت النقود
من يدها ودسستها فى جيبي ، ونسيت كل شىء عن هذه المرأة الأمانة
التي احتملت العناء من أجلى ، وأنت لا تتصور عند ماتتكأثر لديك النقود
كيف تضيق بك الحيل ، وتشتبه عليك المسالك فلا ترى مذهباً لصرفها
ولا وجهاً للتخلص منها

واستولى على بعد ذلك الملل وغلبنى الهم ، وفى لحظة من لحظات الغضب
والحنق تخيلت أن هذه الأوراق الملعونة قد حرقت ، ولكن لم ألبث أن
أخجلنى ذلك لأن معناه التنصل من الواجب وإهدار التبعة ، فعدت إلى
عملى مكروهاً محزوناً ، وكانت النقود غير المطلوبة تتكدس فى درجى ،
وبعد ثمانية أشهر ظهر أن الحظ سييسم لى ، فقد أصابنى ألم فى الأسنان
فذهبت إلى أحد الأطباء وهو شاب صغير معتدل الأجر ، وأبصرت فى قاعة
الاستقبال أربعة معاطف أو خمسة ، وهنا سنحت لى الفرصة ، ففى اللحظات
التي كانت تغفل فيها العيون كنت ألقى بالنقود فى جيوب المعاطف المعلقة ،
وكان يبدو أنى قد حلت المشكل وأن أزمى قد انفرجت ، وظللت أياماً
على ذلك واستراح ضميرى ، وكان المرضى يجلسون فى غرفة الانتظار وقد
تلاأت عيونهم بالبشر والسرور وبرقت أسرة وجوههم ، وكانوا ينساون
إلى قاعة الاستقبال ويعودون دهشين ذاهلين ويحاولون نقل النقود من

معاطفهم إلى مكان أمين وحرز حريز، وكانوا يخبئون وجوههم في مناديلهم
متظاهرين بأن عندهم ألماً شديداً في أسنانهم لكي يستروا سرورهم
وكان بعضهم يذهب إلى القاعة من حين إلى حين وقد جرى في وهمه
أن هذا المظهر العضل الغريب قد يتكرر مرة أخرى أو أكثر، وكنت
أدير النظر حولي في خبث ومكر وأستمتع بلذة هذا الموقف، ولكن شاءت
الأقدار القاسية أن يكون سروري قصير الأجل سريع الفناء
— ولماذا؟ هل عرفك محررو الصحف؟
— لا. وإنما استطارت شهرة طبيب الأسنان حتى اعتقد الناس أنه
أبرع أطباء الأسنان وأقدرهم، ومن ثم كثر قصاده حتى اضطر إلى أن
ينظمهم صفوفاً ويعطى كل فرد منهم رقماً، وقد تسلمت رقم ٦٢٨ ولم أستطع
أن آراه إلا بعد أسبوع أو نحو ذلك، وكانت الفتاة — «السكرتيرة» —
لا تسمح لي بالدخول، ولذا تركته وبحشت عن ميدان آخر أجاهد فيه،
وكان على أن أكون أكثر يقظة وأشد حذراً حتى لا يزول عني القناع
وينكشف السر
وفي بدء السنة الرابعة خطرت لي خاطرة ظريفة شمت الخير في مخايلها،
فقد عرفت غلاماً وسياً باشر النشل مدة خمسة أعوام فتلقيت منه دروساً
وأعترف أنها كانت دروساً قاسية مؤلمة، وفي أولها أخذ يمد أصبعي السبابة
وجعل مفاصلها مسترخية حتى صارت في طول أصبعي الوسطى، وأنت تعلم
أن النشالين لا يستعملون سوى هاتين الأصبعين، ولما أتممت برنامج
الدراسة شرعت في العمل وهان على عيسره

وكننت أعمل بجرأة وغير مبالاة ، وفي موسم القديس استفان ، وقد
أقبل الكبراء والأعيان من كل فج ليشتركوا في الاحتفال مرتدين أبهج
الحلل وفاخر الثياب ، وفقت في أن أدس مبلغ ١٥٠ ريالاً في جيب رداء
رئيس الوزراء وخمسين ريالاً أخرى في قبعته الكبيرة الخاصة بالاحتفال ،
وعندما زار مدير بنك إنجلترا بودابست وكننت أحد الذين قدموا له في
الاستقبال عننت لي فرصة لأزيد ثروته مائة ريال

ولكن أمثال هذه الفرص الذهبية الثمينة كان نادراً ، وكننت أتلبث
وأتلصكاً في الأماكن المزدهجة مثل أماكن لعب كرة القدم ومتنزهات
التسلية وعربات الترام والسيارات

وفي أمسية أحد الأيام السعيدة بينما كننت أرتاض في بعض المتنزهات
نُشِلَ من جيبي مبلغ ألف ريال ، واسترحت من العمل في هذا اليوم
ورحبت بهذا التغيير وأصابتني بعد ذلك نازلة كبرى

ففي ذات يوم — وكان ذلك في شهر مايو وأنا أذكره جيداً — كننت
جالساً في الترام إلى جانب رجل طاعن في السن وكانت له لحية فضية ،
وكان يبدو سرى الهيئة محترم المكانة ، وكان موظفاً متقاعداً ، فأخذت ورقة
مالية من جيبي وهممت بتحريك أصبعي لدسها في جيبه ، فلحظ الرجل
ذلك وضغط على يدي تحت ذراعه ، وصاح بي واستغاث بأحد الجنود ،
ودعا السائق الجندي ولم يكن هناك فائدة في الدفاع عن نفسي فقد قبض
على متلبساً بالجريمة وكان هذا خاتمة المطاف



قصة بلا عنوان

(للروائي الروسي أنطون تشيكوف) [١٨٦٠ — ١٩٠٤]

في القرن الخامس كانت الشمس تشرق كل صباح — كما يحدث في العصر الحاضر — وتمضي كل مساء لتستجم ، وعند الصباح كانت أشعتها تقبل الانداء وتسترد الأرض بهجتها ورواءها ، ويفعم الهواء بترانيم السرور وأغاني الأمل ، وفي المساء كان السكون يلفها في شملته وتغرق في حنادس الظلماء ، وكانت الأيام تمر متشابهة الصفحات ، وتعدو الليالي بعضها في أثر بعض متماثلة ، ومن الحين إلى الحين كان يدوى في الأسماع عزف العاصفة وقصف الرعد أو صوت تهاوى نجم غافل من أنجم الفلك أو أن راهباً شاحب الوجه ينطلق إلى رفاقه ليحدثهم عن نمر أبصره على كشب من الدير ، وهذا جل ما كان يحدث ، ثم يمر اليوم مشبهاً أمسه الدابر ، وكانت الرهبان تزجي الوقت بالصلاة والعبادة ، وكان أبوهم الأكبر يعزف على الأرغن ويقرض الشعر اللاتيني ويكتب في الموسيقى ، وكان لهذا الكاهن العجيب الشأن براعة في العزف تفوق المؤلف ، فقد كان يعزف بلباقة وافتنان لا يستطيع معها أكبر الرهبان سناً والذين أضعف وقر الشيخوخة حدة أسماعهم أن يمنعوا انحدار الدمع من عيونهم عند

تدفق أنعام الأرغن من صومعته ، وكان إذا تحدث عن أى شيء - حتى
عن الأشياء العادية المألوفة - مثلاً عن الأشجار وضواري الوحوش -
لا يستطيعون أن ينصتوا لحديثه دون أن تعلو وجوههم الابتسامات المشرقة
أو تنهل من مآقيهم الدموع المترققة ، وكان يخيل إليهم ان الأوتار ترتعش
وتهتز في داخل نفسه كما تضطرب في الأرغن

وكان إذا استولى عليه الغضب أو استفزه الطرب أو شرع في الحديث عن
شيء مرهوب أو شيء جليل الشأن يتنزل عليه نوع من الوحي فتمتلئ عينه
بالدموع الحارة ويحمار وجهه وتدوى نبرات صوته ، وكان الرهبان يشعرون
وهم يستمعون إليه وقد اختلب البابهم بأن وحيه قيد أرواحهم وعقلة نفوسهم
وكانوا يحسون في أمثال تلك اللحظات الفاخرة المتجلية أن له على نفوسهم
سيطرة غير محدودة ، وأنه لو أمرهم بإلقاء أنفسهم في اليم لخفوا سراعاً تلبية
لطلبه ونزولاً على أمره

وكان لهم من صوته وأرغنه ومن شعره في تمجيد الله والسماء والأرض
نبع سرور لا ينضب ، وكانوا يسأمون في بعض الأوقات تلك الحياة المتشابهة
الراتبة ، ويملون رؤية الأشجار والأزهار والربيع والخريف ، وتعاف
أذانهم هدير البحر ويؤلم أسماعهم سجع الطيار ، ولكن لم يكن لهم غنى عن
فن الأب الأعلى المتفوق الموهوب ، وكان لازماً لهم لزوم الغذاء اليومي
وتصرمت أعوام وهم يعيشون على هذه الوتيرة ، فكل يوم يمر يشبه
سابقه ، وكل ليلة تكرر تماثل الفائتة ، ولم يكن يدنو من الدير إلا الطيور

وضواري الوحوش وكان بينهم وبين أقرب مسكن بشرى مسافات متطاولة ،
ولا بد للوصول إليه من طى مسافة تزيد على السبعين ميلا فى الصحراء ،
ولم يجترئ أحد على الضرب فى تلك الصحراء إلا الذين نبذوا الحياة
وزهدوا فيها وقصدوا إلى الدير كما يتيممون القبر .

وفى ذات ليلة من الليالى اشتد تعجب الرهبان وعرتهم الدهشة إذ طرق
باب الدير رجل يدل منظره على أنه من البلد المجاور وأنه من المفتونين
بحب الحياة ، وقبل أن يؤدى الصلاة ويلتمس بركات الأب الأسفى طلب
نبيذاً وطعاماً ، ولما سألوه عن سبب قدومه من البلدة إلى الصحراء أجاب
بقصة طويلة جاء فيها أنه خرج للصيد وأمعن فى الشراب فضل طريقه ،
ولما رغبوه فى دخول الصومعة والانخراط فى سلك الرهبة أجابهم باسم
« لست أصلح رفيقاً لكم » !

ولما تملأ من الأكل والشراب أخذ يحدج ببصره الرهبان الذين قاموا
على خدمته ، ثم هز رأسه هزة لوم وتأنيب واندفع يقول « أنتم يا معشر
الرهبان لا تفعلون شيئاً سوى الاقبال على الأكل والشراب ، فهل هذا
هو طريق تخليص روح الانسان ؟ فكروا ملياً وضعوا نصب أعينكم أنكم
تقيمون هنا فى ظلال الراحة والهدوء ، وتأكلون وتشربون وتحلمون بالغبطة
والسعادة على حين يتردى جيرانكم فى المهالك ويقعون فى مقابض التلاف
وينساقون فى طريق الجحيم ، وينبغى لكم أن تشاهدوا ما يحدث فى المدينة ،
هنالك يتضور الكثيرون جوعاً فى حين لا يعرف الآخرون ماذا يصنعون

بذهيهم فيتها الكون على الفجور ويسرفون في التهلك حتى يلحقهم الهلاك
كالذباب الذي يلتصق بالعسل ، وقد انطفأت في قلوب الناس شعلة اليقين
واقفرت نفوسهم من الايمان ، فعلى من يجب ارشادهم وهدايتهم ؟ ليس
هذا من واجبي وأنا حليف النشوات والعاكف على الخمر من صباح اليوم
إلى مساءه ، فهل وهبكم الله النفس الوديعه الصالحة والقلب العامر بالحب
وصادق اليقين بالله لتستطيبيوا الراحة وتقبعوا هنا بين الجدران الأربعة
وتتركوا الأمور تجري في أعنتها ؟

وكانت كلمات الرجل جارحة متوقحة وغير لائقة ولكنها أثرت تأثيراً
بالغاً في نفس الأب الأعلى ، فتبادل النظرات مع الرهبان وقد امتقع لون
وجوههم وقال « يا اخواني ، إنه ينطق بالحق ، وأتم تعلمون ذلك ، والواقع
أن الفقراء والمساكين وأبناء السبيل يتورطون في الرذيلة والكفر لشدة
ضعفهم ونقص عقولهم ، فلم لا أذهب إليهم وأذكرهم بالمسيح الذي نسوه ؟ »
ونالت كلمات الرجل من نفس الكهل ، ففي اليوم التالي انطوى على
عكازه ، وودع رفقاءه وقصد المدينة ، وترك الرهبان محرومين من أرغفه
والاستمتاع بأحاديثه ورقاق شعره ، فأمضوا شهراً مقفراً مملاً ، وتلاه شهر
آخر ، ولم يعد إليهم الأب الأعلى ، وأخيراً بعد انقضاء ثلاثة أشهر سمعت
ركزة عكازه ، فنفرت الرهبان لاستقباله وأحاطوا به ، وانهاوا عليه بالأسئلة
فلم تبد عليه علائم السرور لرؤيتهم ، واسترسل في البكاء ، ولم ينبس بكلمة ،
ولاحظ الرهبان أن شكله أصبح يدل على فرط التقدم في الشيخوخة وعلو

السن ، وأن جسمه قد نحف وهزل ، وظهرت على وجهه أمارات الإعياء الشديد والحزن العميق ، وكان يتبدى عند بكائه في صورة الرجل الذي امتهنت كرامته وجرحت عزته .

بكى الرهبان لبكائه ، وأخذوا يتحدثون إليه في رفق وعطف وسألوه عن سبب بكائه وشديد حزنه ، ولكنه خلا بنفسه في الصومعة سبعة أيام صام في خلالها عن الأكل والشرب ولم ينقطع عن البكاء ، وهجر أرغفه ، وكان يقابل توسلات الرهبان وطلبهم مشاطرته في أحزانه بصمت دائم وإعراض .

وأخيراً سعى إليهم ، وجمعهم حوله ، وبدأ يتحدثهم عما شاهده في المدينة خلال الأشهر الثلاثة التي أمضاها بها ، وكان يبدو على وجهه الذي سألت به الدموع سياء الحزن والغضب وكان وهو يصف رحلته من الدير إلى المدينة هادئاً تومض عينه إيماض السرور والارتياح ، وقال لهم إن شواذى الطير كانت تغنيه وتهتف له ، وأنه كان يسمع خرير الجعافر ، وكانت آمال الشباب تجيش في نفسه ، وكان ينظم الأشعار ويشعر بشعور الجندي الزاهب إلى المعركة وهو واثق من النصر ، وهكذا وصل إلى نهاية الرحلة وهو ينظم الأناشيد ويقرض الشعر والأحلام تتطاير حوله ولم يشعر بكلال ولا فتور .

ولما استطرد إلى الحديث عن المدينة وأهلها خفت صوته وتهدج ، واتقدت عينه وامتلاً حنقاً وغيظاً ، وقال انه رأى ما لم يره من قبل ، بل ما لم يجسر

على أن يبصره بعين التوهم ، فهناك شاهد لأول مرة في عمره الطويل قوة الشيطان وفتنة الشر وأدرك ضعف الإنسان ومهائته وحقارته وجبنه ، وقد ساقته المصادفات السيئة عند أول دخوله المدينة إلى منزل من منازل الفحش والرذيلة ، وكان بالمنزل خمسون رجلاً مقبلين على الطعام وهم يتعجبون النبذ بكثرة تفوق الحد ، ولما قرعتهم حميا الكأس شرعوا يغنون بصوت مرتفع ويتلفظون بألفاظ مثيرة مكروهة لا يجترأ من يخشى الله على النطق بها ، وكانت حريتهم المطلقة وفرط ثقتهم بأنفسهم وما ينعمون به من سعادة ينفي عنهم الخوف من الله ومن الشيطان ومن الموت ، وكانوا يذهبون إلى حيث تقودهم شهواتهم وترمى بهم أهواؤهم ، وكان النبيذ صافياً يلمع لمعان الذهب الوهاج ، ولا بد أنه كان لذيذ المذاق كثير الحلاوة فواح الشذى ، فقد كان كل من احتسى منه يمتلىء طرباً ومرحاً ويغرب في الضحك ويحاول الاستزادة من الشراب ، وكان النبيذ كان يجازى الابتسام بالابتسام فكان يزداد إشراقاً ولمعاناً عند ما كانوا يملأون منه الكؤوس كأنه كان يشعر بالفتنة الشيطانية الكامنة فيه

ثم استشاط غضبه واسترسل في وصف ما رآه ، قال : ان امرأة كانت تقف على مائدة وسط هؤلاء الفجار وجسمها نصف مكشوف ، وكان يعجزك أن تجد امرأة أنضر منها حسناً وأشد فتنة ، وكانت تلك الأفعى فرعاء دجاء سمراء البشرة غليظة الشفتين ناضبة الحياء شديدة القحمة ، وكانت تتضاحك عن ثغر شتيت كأنها تقول « ان جمالى ليس له نظير وليس يندى لى من

الحياء جبين » ، وكانت تشرب النبيذ وتغنى بغير مبالاة وتمنح نفسها كل من تنازعه نفسه إليها

ثم هز الرجل ذراعيه غاضباً وأخذ يصف أما كن سباق الخيل وقتال الثيران والمسارح وغرف المصورين التي يرسمون فيها النساء العاريات أو يصنعون لهن تماثيل من الطين ، وكان يتحدث ببلاغة ساحرة ملهمة كأنه يضرب على أوتار غير منظورة ، وكان الرهبان قد جمدوا في مكانهم من شدة الاصغاء وكانت كلماته تقع منهم مواقع الماء من ذى الغلة الصادى وقد بهر السرور أنفاسهم

وبعد أن وصف لهم مباحج الشيطان ، وروعة الشر ، وفتنة جمال المرأة الرهيب الخفيف استنزل اللعنات على الشيطان وعاد إلى صومعته وأوصد عليه الباب

ولما خرج من صومعته إلى الدير فى صباح اليوم التالى لم يجد فى الدير أحداً من الرهبان ، كانوا كلهم قد فروا إلى المدينة



شخصية غامضة

(للروائي الروسي انطون تشيكوف)

في إحدى عربات الدرجة الأولى من قطار السكة الحديد جلست على المقعد الأرجواني الوثير سيدة حسناء متكئة بعض الاتكاء ، وكان ترعش بين أصابعها المضمومة مروحة نفيسة ناعمة الملمس ، وكانت نظارة من النظارات التي تشبك الأنف لا تنى تسقط من فوق أنفها الأقي ، وكان دبوس من الماس يصعد ويهبط فوق صدرها كالزورق على متن المحيط

وكان يجلس على مقعد أمامها كاتب إحدى اللجان الريفية ، وهو شاب في مقتبل العمر ومؤلف ناجم ، نشر طائفة من القصص المطولة عن حياة الطبقة الراقية في كبريات الصحف الريفية ، وكان يتأمل وجهها وينظر إليه نظرة المحرب الخبير والباحث في خفايا النفوس ، وكان يراقبها مراقبة دقيقة ليتعرف طبيعتها ويقف على كل لون من ألوان أخلاقها الشاذة الغامضة ، وكان يخيل إليه أنه يجيد فهمها ويستطيع أن يسبر غورها فنفسها أمامه سر مفتضح ولغز مكشوف

قال لها وهو يقبل يدها قرب السوار : « آه أنا أفهمك وأعرف دخيلة نفسك ، إن روحك الحساسة الملبية تحاول أن تتخلص من ورطة

نعم إن المعركة رهيبة ولكن تشجعي فالنصر لك ! نعم النصر لك !

فأجابته الحسنة بابتسامة حزينة « أكتب عني يا فولدمار فإن حياتي حافلة متنوعة ، وأنا قبل كل شيء عائرة الحظ ، أنا نفسي متألمة معذبة في إحدى صفحات روايات دستوفسكي ، فكشف الستار عن روعي للدينيا ، وصف يا فولدمار هذه الروح التي خانها الحظ وأساءت إليها الحياة ، أنت عليم بأسرار النفوس فإنه لم يمض على لقائنا في القطار ساعة وها أنت عرفت ما في قلبي ! »

خبريني أرجوك ! خبريني !

فأجابته « أعرني سمعك ، كان والدي كاتباً رقيق الحال في خدمة الحكومة ، وكان طيب القلب ولا يخلو من ذكاء ، ولكن روح العصر والبيئة — كما تعرف — ولذا لا ألوم والدي لأنه كان يشرب الخمر ويلعب القمار ولا يعف عن الرشوة أما والدتي ولكن لماذا أطيل الحديث ، فإن الفقر والكدح لأجل القوت والشعور بالمهانة آه لا ترغبني على أن أفضي إليك بكل شيء ، وأنت تعرف التربية الثقيلة المملة في المدرسة الداخلية وسخافة قراءة الروايات ، وهفوات الشباب الباكر ، وأول خدع الحب وضياع الثقة بالنفس ! آه أنت مؤلف وتعرفنا نحن النساء ، وأنت ممن يفهمون ولا تغيب عنك شاردة ، ولسوء الحظ بليت بطبيعة حادة فتطلعت إلى السعادة ، وأية سعادة ! شاقني أن أطلق العنان لنفسي ، نعم رأيت أن سعادتني في ذلك ! »

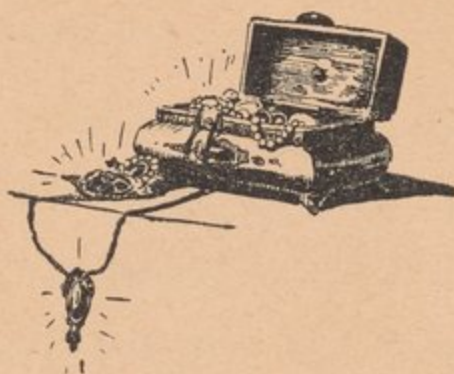
فجمعهم المؤلف لنفسه « لله درك » وقبّل يدها من السوار قائلاً « أنا
لا أقبل يدك وإنما أقبل شقاء الإنسانية »

« آه يا فولدمار كنت تواقّة إلى المجد والشهرة والنجاح ، — ولماذا
أتظاهر بالتواضع — مثل كل إنسان يشعر بأنه فوق المستوى العادى ،
وكنت أتلهف على شىء أسمى مما ألفه الناس وأكثر من نصيب المرأة !
سئح لى إذ ذاك فى طريقى قائد كبير السن ميسور الحال ، إفهمنى يا فولدمار
وكانت تضحية وكان تنازل ! يلزم أن ترى ذلك ، لم أستطع أن أفعل شيئاً
آخر ، وأمكننى أن أعيد إلى الأسرة مركزها وأن أسافر وأن أصنع الخير
وأسدى المعروف ، ولكن مع ذلك كان عناقه بغيضاً إلى نفسى ولو أنى
لا أعطه حقه فقد جاهد بنبل فى صدر حياته ، وكانت هناك لحظات
رهيبة ، ولكنى كنت أتصبر وأحتمل لعامى أنه لا يلبث أن يموت وأستطيع
بعد ذلك أن أعيش كما أريد وأمنح نفسى الرجل الذى أعبدته وأكون
سعيدة إلى جانبه وهذا الرجل موجود يا فولدمار ! »

وجعلت تحرك مروحتها فى عنف ، وارتسمت اللوعة على محياها ،
استطردت تقول : « وأخيراً مات الرجل وترك لى شيئاً وأصبحت طليقة
كالعصفور ، أليست الآن ساعة سعادتى يا فولدمار ! جاءت السعادة تقرر
نافذتى بخفة ورشاقة ولم يكن على إلا أن أفتح لها وأدخلها . ولكن أرجوك
يا فولدمار أن تحسن الإصغاء ، حان الوقت الذى أسلم فيه نفسى للرجل
الذى أحبه وأصير شريكته فى الحياة وأنصر مثله العليا ، وأجد السعادة

والراحة إلى جانبه ، ولكن ما أقبح الحياة وما أقذرها وما أتعفها ! ما أخس
الحياة يا فولد مار ! أنا تعسة تعسة تعسة ! أخيراً قامت عقبة في سبيلي ،
ورأيت السعادة بعيدة عني مجانة لى فليتك تدرى ما مسنى من ألم ! «
فقال فولد مار : « ما الذى يقف فى سبيلك ، أتوسل إليك أن
تخبرينى ! » .

فأجابت : « قائد آخر متقدم فى السن ولكنه ميسور الحال ... »
وكانت المروحة المكسوة تستر وجهها الصبيح ، والمؤلف يعتمد جبينه
المثقل بالتفكير على قبضة يده ويفكر تفكير المتعمق فى علم النفس ،
وكان القطار يصفر وقد انضحت أستار العربات بحمرة وهج الشمس المائلة
إلى الغروب .



حلم نورسكا

مترجمة عن لفكاديو هيرن [١٨٥٠ - ١٩٠٤]

منذ ستائة سنة كان يعيش في مدينة «يوجي» من أعمال «ياماشيرو» شاب من رجال الجندية اسمه «أتو نورسكا» وكانت سلسلة نسبه تتصل بعشيرة «الهيكا»، وكان أتو حسن الصورة رضى الأخلاق على حظ وافر من التهذيب، جيد الخبرة بفنون الحرب والفروسية، ولكن أسرته كانت رقيقة الحال، ولم يكن له نصير بين سراة الجندية، ولذا كانت آماله ضيقة محدودة، وكان يعيش عيشة هادئة، مكرساً حياته لمطالعة الأدب ولا صديق له سوى القمر والريح كما يقول راوى القصة اليابانى .

ففى مساء يوم من أيام الخريف كان يسير منفرداً بجوار تل «كوتوييكياما» فأدرك فتاة كانت تسير فى نفس الطريق مرتدية بملابس فاخرة ثمينة وتناهر سنهما الحادية عشرة أو الثانية عشرة، فحياها أتو وقال «ستغرب الشمس عما قليل أيتها الأنسة، والمكان موحش فاسمحي لى أن أسألك هل ضللت الطريق؟» فنظرت إليه وقد تهلل وجهها وأشرق بالابتسام وأجابت مستنكرة: «إنى خادمة أشتغل فى الناحية المجاورة والمسافة التى سأقطعها قصيرة»

وتبين نورسكا من لهجة حديثهم أنها خادمة في منزل أسرة من الطبقة الراقية ، وأدهشه ذلك ، لأنه لم يسمع قط بوجود أسرة ذات جاه ونشب في جوار الناحية ، ولكنه اكتفى بأن قال : « إني عائد إلى يوجي حيث أقيم ولعلك تسمحين لي أن أصحبك في الطريق فإن المكان منعزل وموحش » فشكرته بلطف وبدا عليها السرور بوعده ، وسارا معاً يتبادلان الحديث ، فتحدثت عن الجو وعن الأزهار والفراش والعصافير ، وعن زيارتها مرة لمدينة « يوجي » وعن مناظر العاصمة التي ولدت فيها ، ومرت اللحظات حلوة سعيدة وأتو ينصت لهدرها المستطاب ، وفي الفور عند منعرج الطريق دخلا مزرعة قد تكاثفت ظلال ألفافها الصغيرة وكان الظلام شديد الاعتكار عند وصولهما لأن الشمس غربت ولم ينفذ الوهج الذي خلفته خلال ظلال الأشجار المتدانية ، ثم قالت الفتاة وقد أشارت إلى حارة ضيقة متصلة بالطريق الرئيسي « سأذهب من هنا » فقال لها أتو اسمحي لي أن أرافقك إلى المنزل ، واتجه إلى الحارة معها وهو يقتحم لجة الظلام الدامس ويتحسس طريقه أكثر مما يراه بالعين ، ولكن الفتاة لم تلبث أن وقفت بإزاء بوابة صغيرة مصنوعة من خشب مشبك لا تكاد تظهر في الظلام ، وكنت تلاح أضواء المنزل خلفها ، وقالت الفتاة « هذه دار الأسرة النبيلة التي أخدمها ، وما دمت قد حدث عن طريقك فهل تتنازل وتشرف الدار لتستريح قليلا » ؟ فوافق أتو وسرته هذه الدعوة غير الرسمية ، وبداله أن يستطلع أمر هذه الأسرة النبيلة التي آوت إلى

هذه القرية المنعزلة ، وكان يعرف أنه في بعض الأوقات تعتزل الحياة أسرة
من الأسر ذات النفوذ والجاه وتقيم في ناحية قاصية مهجورة بسبب استياء
الحكومة والاضطرابات السياسية ، وخيّل إليه أن تاريخ رب هذه الدار
قد يكون من هذا القبيل ، فلما ولج الدار رأى نفسه في حديقة أنيقة
متسعة ، ورأى صورة منظر طبيعي يشقه نهر متعرج وكانت الصورة مصغرة
لا تكاد تبدو في الظلام ، وقالت له الفتاة « تنازل ياسيدى الكريم
وانتظر لحظة وسأذهب لأعلن تشريفك منزلنا وانفلتت مسرعة ، وكان
المنزل رحيب الجنب قديم الطراز ، وكانت أبوابه المنحدرة غير مقفلة ،
وكان هناك ستارة من الخيزران جميلة الصنع ممتدة على طول الرواق تحجب
داخل المقاصير المضاءة ، وكانت تتحرك وراءها أشباح نساء ، ثم أخذ
ينسجم في أذنه عزف موسيقى سابحة في سجو الليل ، وكان العزف رقيقاً
لينا مستعذب الوقع حتى شك أتو في صدق حواسه ، وألم بنفسه شعور
هاديء ناعس وشاع فيها السرور والارتياح ، وأنصت للعزف وامتزجت
في نفسه الأفراح بالأحزان وأدهشه كيف تستطيع امرأة أن تجيد العزف
إلى هذا الحد ، وبهت لذلك وذهل عن نفسه وكاد ينكر أنه يسمع موسيقى
أرضية لأنه كان يحس دبيب السحر يسرى في دمه .

ثم توقف العزف ، وفي نفس اللحظة رأى أتو الفتاة إلى جانبه
وقالت له « ياسيدى تفضل واتبعنى إلى داخل المنزل » ، وقادته إلى الباب
حيث خلع نعليه ، وقابلته عجوز ظنها ربة الدار قادمة لاستقباله والترحيب

به ، وسارت معه فى مقاصير وحجرات عديدة حتى انتهت إلى قاعة حسنة الإضاءة فى مؤخرة المنزل ، ثم تقدمت إليه — بعد أن أكثرت من تحيات الاحترام وكلمات الحفاوة — فى أن يتبوأ صدر المكان المعد للزائرين من ذوى الوجاهة والمقامات الرفيعة ، فأدهشته أبهة القاعة وجمال زخارفها ، وأحضرت الخادمة المرطبات ، ولاحظ أتو أن الكؤوس والأوانى التى وضعت أمامه فاخرة الصنع ومزخرفة بشارة تدل على سمو مكانة رب المنزل وجلالة خطره ، فازدادت دهشته وذهب به التعجب كل مذهب ، وأخذ يفكر فى من عسى أن يكون هذا النبيل السرى الذى اختار لنفسه هذه العزلة ، وما هى الحادثة التى أوحى إليه تلك الرغبة ، ولكن تدخلت بغتة المرأة العجوز وقطعت عليه سبيل تفكيره وسألته « لا أظننى مخطئة فى أنك أنت نورسكا » ؟

فأطرق نورسكا برأسه موافقاً ، ولم يكن قد ذكر اسمه للخادمة ، وعجب لأسلوب السؤال ، واسترسلت العجوز قائلة « أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك بالأسئلة ، فإن عجوزاً مثلى قد تكثرت الأسئلة دون أن يكون غرضها حب استطلاع غير لائق ، وقد تذكرت عند قدومك منزلنا أنى أعرف وجهك وسألتك عن اسمك لأبدد الشكوك قبل أن نأخذ فى مسائل أخرى ، ولدى شىء أود أن أفضى به إليك ، وهو أنك تكثرت المرور من هذا الطريق ، وقد لحتك فى صباح يوم من الأيام « ساما » الصغيرة وكانت سائرة فى الطريق ، ومنذ تلك اللحظة وهى تفكر فىك آناء

الليل وأطراف النهار والواقع أنها قد أطالت فيك التفكير حتى اعتلت صحتها واشتد قلقنا عليها ، ولذا اجتهدت في معرفة اسمك ومحل إقامتك ، وكنت أهم بأن أرسل إليك كتابا لما قدمت منزلنا على غير انتظار مع خادمتنا الصغيرة ، والآن لا يمكنني أن أعبر عن سرورى بمرآك ، وأنى لأعده حادثة سعيدة إلى حد أنى أعتقد من فرط الابتهاج أنها غير صحيحة وهذا اللقاء لم يهبى فرصته سوى كرم الاله « كامي » الذى يحكم عقدة الزواج السعيد ، وما دام الحظ السعيد المساعف قد ساقك إلينا فما أظنك تمناع — إذا لم يكن هناك عقبة في طريق العقد — فى أن تسر قلب ساما »

فلزم أتو الصمت هنيئة ، وإذا كانت العجوز قد صدقته القول فإن فرصة نادرة قد سنحت له ، وليس يدفع فتاة من أسرة شريفة إلى الزواج باختيارها من رجل غامض الشأن ليس له فى الحياة نصير ولا خيل عنده ولا مال أقول ليس يدفعها إلى ذلك إلا عاطفة حب قاهر غلاب ، ولكن لم يكن من أخلاق أتو الشريف النفس استغلال ضعف المرأة ، وفضلا عن ذلك فقد كان يشعر بأنه قد أهدقت به من كل وجه غوامض ومعميات لا ينفذ فيها البصر ولا سبيل إلى جلاء أسرارها ، ولكن كيف يرفض الطلب ويتردد فى قبول هذا العرض ؟ فأطرق قليلا ثم قال « ليس هناك عقبة ، وبخاصة لأننى لم أتخذ بعد زوجة ولم أرتبط بفتاة أخرى ، وقد عشت حتى الآن مع والدى ولم يمحثا موضوع زواجى وأود أن تعرفى أنى شاب فقير لا نصير لى من الأشراف ، ولا أحب أن أغامر بالزواج إلا إذا عرضت لى

فرصة لتحسين حالتى ، أما عن طلب الزواج الذى شرفتنى كل الشرف بعرضك إياه على فلست أملك إلا أن أقول لك أنى أعرف نفسى غير جدير بأن أسترعى التفات فتاة نبيلة »

فضحكت العجوز وكأنما سرتها هذه الكلمات وأجابت « يحسن بك أن تؤجل الفصل فى الموضوع حتى ترى « ساما » وربما لا تتردد بعد رؤيتها ، تنازل وسر معى حتى أقدمك لها » ، وصحبته إلى قاعة للزائرين أكثر اتساعاً وبها معدات الحفلة ، وأشارت إلى صدر المكان وتركته لحظة منفرداً وعادت تصحبها « ساما » فشعر أتو عند أول رؤيته لها بهزة من الطرب تسرى فى أوصاله كالهزة التى غشيته فى الحديقة وهو يستمع إلى أنغام الموسيقى ، ولم يكن يحلم بأنه سيشاهد يوماً مثل هذا الجمال الرائع ، وكانت كأنما تنشق منها الأنوار وتضىء ملابسها كما ينفذ ضوء القمر من خلال السحب ، وكان شعرها المرسل فى غير نظام يتماوج خلفها وهى تتثنى ثثنى أفنان الصفصافة الحانية وقد لاعبتها خطرات النسيم فى رونق الربيع ، وكانت شفتاها كزهر الخوخ وقد انتشرت عليه أنداء الصباح ، فبهت أتو من رؤيتها وحر فى أمره

ثم التفتت العجوز وهى تبتسم إلى الحسناء التى وقفت صامتة غاضة الطرف وقد تورد خدها حياءً وخفراً وقالت « أنظرى يا إبنتى ، فى اللحظة التى لم نكن نتوقع قدومه يأتى إلينا بدون دعوة ، ولم يتم ذلك إلا بمعونة الآلهة ، وأن تفكيرى فى ذلك يجرى عبرتى — وأجهشت بالبكاء — ولكن الآن — واسترسلت فى الحديث وهى تمسح دموعها بكفها — لم يبق لكليهما

إلا أن يهب نفسه للآخر ويشترك في حفلة الزفاف إذا لم يكن هناك ما يعترض تلك الرغبة وهو ما أشك فيه »

فلم ينطق أتو بدمت شفة ، فقد خدرت رؤية الحسنة إرادته ، وعقدت لسانه ، ثم دخلت خادمة تحمل الآنية والنبيد ومدت المائدة بإزاء العروسين وتبادلا العهود والمواثيق ، وكان أتو كأنه في غمرة من الغيبوبة فقد كانت غرابة المكان وجمال العروس يذهلان لبه

ثم استفاض في نفسه سرور لم يلق فيما لقيه مثله ، ولكنه أخذ يستفيق من دهشته رويدا رويدا ويسترد هدوءه المعتاد ، واستطاع بعد ذلك أن يتكلم بلا تردد وعب من النبذ عبا واستخف بالشكوك التي ساورتها وغالب الأوجال التي استبدت بمشاعره ، وفي أثناء ذلك ظلت الفتاة صامتة صمت ضوء القمر دون أن ترفع عينها وكانت تجاوب في حياء وابتسام عند ما يوجه إليها الحديث

وقال أتو للعجوز « لقد مررت بهذه القرية مرات كثيرة في مشياتي المنفردة ، ولكن لم أعلم بوجود منزلكم الشريف ، ومنذ دخولي هنا وأنا أعجب لماذا أختار رب الدار النبيل هذا المكان الموحش لإقامته ... والآن وقد عقد لي على ساما فأنى أرى أنه من الغرابة بمكان جهلى اسم أسرته الشريفة »

فلما قال ذلك تبهم وجه العجوز الحنون وأصفر لون العروس التي لم تكلم ، ولاح في أساريرها القلق والألم ، وبعد دقائق قليلة من الصمت

أجابت العجوز « من الصعب أن نحییء عنك سرنا أكثر من ذلك ،
ومهما كانت الأحوال فإنه يجب أن تقف على الحقيقة لأنك قد صرت
واحداً منا ، فأعلم إذن ياسيدى أن عروسك هی ابنة « شجيرا كيو »
القائد « السنامی كيمو » العظيم المنكود الحظ

وعند سماع هذه الكلمات علت أثور رجفة كأنما سرى فی عروقه الثاج
فقد غبرت قرون على القائد السیاسی العظيم شجيرا كيو وهو فی قبره ،
وأدرك أثور فجأة أن كل ما حوله — القاعة والضوء والمائدة — حلم من
أحلام الماضي ، وأن كل الأشباح الماثلة لعینه ليست أحياء وإنما هی
خیالات الموتي

ولكن بعد لحظة مرت هذه الرجفة لطيتها وعاوده السحر البهیج ورأى
نفسه یرسب شيئاً فشيئاً فی قرارته ، ولكنه لم يشعر بخوف ، فان عروسه —
وإن كانت قادمة من « یوجی » حيث ینابیع الموت الصفیر — قد
استحوذت على مشاعره وأخذت بمجامع قلبه ومن یتزوج شبحاً من الأشباح
فلا بد أن یصیر هو أيضاً شبحاً ، وكان أثور یؤثر لقاء الموت مرات لا مرة
واحدة على أن یخون كلمته ویخفر عهده ، وكان لا یطیق أن یرى ظلاً
من الألم یعلو جبین هذا الوهم الجمیل والحلم الفاخر البادی لعینه ، ومرت بنفسه
هذه الأفكار والعواطف كومض البرق وتركته عاقد العزم على أن یقبل
الموقف الغریب ویرضاه وأن یتصرف كما لو كانت ابنة شجيرا كيو قد
اختارته فی عهد أبيها بعلاً لها

ثم قال متعجباً « لقد سمعت عن مصرع شجيرا كيو الحزن القاسى »
فأجابت العجوز « لقد كان حقيقة مصرعاً مؤلماً ، فقد قتل جواده بسهم فسقط
عليه ، ولما طلب المعونة من أحد أصحابه الذين عاشوا فى ظلال كرمه وبره
هجره فى وقت الشدة فأخذ أسيراً وأرسل إلى « كما كير » حيث عاملوه معاملة
مخجلة وقتلوه فى نهاية الأمير ، واختفت زوجته وطفلته - ساما العزيزة -
لأن أعداء الهيك كانوا يبحثون عنهم فى كل مكان ويذبحونهم ذبحاً ،
ولما جاءتنا أنباء مصرع النبيل شجيرا كيو لم تحتمل الوالدة هذه الصدمة ،
فماتت ولم يبق أحد يرعى الطفلة سوى لأن أسرتها أيدت عن آخرها ،
وكان عمرها خمس سنوات ، وكنت أنا مرضعتها ، وبذلت ما فى وسعى
لوقايتها ، وأخذت بعد ذلك تتقاذفنا الأسفار وترمى النوى بنا المرامى ، وليس
من المناسب سرد قصة هذه الأحزان « الآن ثم كفكفت بوارد دمعها
ومضت قائلة « سامح قلبى اللجوج الذى لا يقوى على نسيان الماضى ، وقد
سبت الطفلة التى ربيتها وترعرعت وأصبحت ساما التى تراها الآن ، وكنا
نعيش فى عصر الامبراطور الصالح تسكا كيرا ، فله ما خباثته لنا تصاريه
الأقدار ! ولكن مهما كانت الأحوال فقد ظفرت ساما بالزواج الذى يوده
قلبها وهذا أعظم سرور وأجل نعمة . . . ولكننا الآن فى ساعة متأخرة من
الليل . . . وقد أعددت غرفة لكما وسأترككما فى خلوة حتى الصباح »

وقامت وأزاحت الأستار التى تفصل قاعة الزوار عن الغرفة المجاورة
ودعتهما إليها ، وانكفأت إلى حجرتها بعد أن زفت إليهما آيات التهانى

وأفاضت في وصف سرورها ، وتركت أتو منفرداً مع عروسه فلما ساد
السكون قال لها أتو « خبريني يا حبيبتي متى وددت أن أكون لك
زوجاً؟ » (كان كل شيء يبدو كأنه حقيقة لا ريب فيها حتى أمسك عن
الشك في هذا الوهم المنسوج حوله) فأجابته بصوت كهديل الحمامة
« يا زوجي يا سيدي الرفيع المقام ، رأيتك أول مرة في معبد « أشياما »
الذي كنت أزوره مع مريتي ، وفي اللحظة التي صافح فيها ناظري محياك
تغيرت الدنيا في عيني ولكنك لا تستطيع أن تذكر هذا اللقاء لأنه لم يكن
في حياتك الحاضرة وإنما كان منذ أزمان عريقة في القدم ، وقد تنقلت
بعد ذلك مرات عدة في أطوار الحياة والموت وظهرت في أجسام متعاقبة
جميلة ، أما أنا فلم يتغير حالي ولم يتبدل جسمي لشدة إيثاري لك وحرصى
عليك ، فيا سيدي ويا زوجي العزيز لقد انتظرتك من بين العد العديد
من الرجال الذين تهافتوا في طوال الأعصر »

ولم يفزع الزوج عند سماع هذه الكلمات الغريبة ، بل لم يتطلب في
هذه الحياة أو في كل أطوار حياته أكثر من أن يشعر بذراعيها تطوقانه
وأن يمس سمعه صوتها وهي تلاظفه وتواسيه

ولكن رنين جرس المعبد أذاع قدوم الصباح وجعلت العصافير تزقزق
والنسيم يوسوس في الأشجار وجاءت المربية العجوز وأزاحت الأستار
وقالت لهما « لقد حان وقت الرحيل ويجب أن تفترقا في ضوء النهار وإلا
ساعت المغبة فتودعا الآن »

فتأهب أتو للرحيل دون أن يتكلم ، وكان يفهم مغزى هذا التحذير الذى نطقت به العجوز فهما غامضاً ، وأسلم مقاليدہ للقضاء ، وكان يعرف أنه أصبح لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، وصار لا يطلب إلا أن يرضى عروسه الخيالية ، ووضعت فى يده محبرة عليها نقوش عجيبة وقالت له « إن سيدي الشباب وزوجى من رجال الأدب فهو لا يحتقر هذه الهدية الصغيرة ، وهى قديمة وغريبة الصنع ، وقد كان أهداها إلى والدى الأمبراطور « تكا كيرا » ولهذا السبب أظنها نفيسة »

فرجاها أتو أن تقبل حائل سيفه تذكاراً وكانت مطعمة بفصوص من الذهب والفضة على شكل زهر البرقوق وطائر العنديل

وجاءت الخادمة لترشده إلى الحديقة ، ومشيت معه العروس وأما فى الرضاع وشيعاه إلى الباب ولما نزل من السلام وحيهاها تحية الوداع قالت له العجوز « سنلتقى فى الثانية من سنى الدب فى نفس اليوم الذى جئت فيه هنا وفى نفس الشهر ، وهذا العام هو عام النمر فعليك أن تنتظر عشر سنوات وسوف لا نستطيع أن نلتقاه هنا لأسباب ندع ذكرها الآن ، وسنذهب إلى جوار « كيتو » حيث يقيم الأمبراطور الصالح « تكا كيرا » مع أبائنا وأكثر أسرة « الهيككا » وسيسر الجميع قدومك وسنرسل لك هودجا لانتظارك فى الميعاد المضروب »

وكانت النجوم تومض وأتو يمر من البوابة ، ولكنه لما انتهى إلى قاعة الطريق رأى أنوار الفجر منتشرة على مسافة أميال وراء الحقول

الصامتة ، وكان يحمل في صدره هدية عروسه ، وكان سحر صوتها لا يزال
باقياً في أذنه ، ولولا هذا التذكار الذي لمسه بأصابعه فاحصاً مستخبراً
لأغراه الظن بأن ذكرى الليل ليست سوى أضغاث أحلام نائم ونخلال
أن حياته لا تزال في قبضة يده ولما استوثق من أنه قد قضى على نفسه
قضاءً مبرماً لم يخالجه أسف ولم تؤلمه سوى روعة الفراق وطول الزمن الذي
يجب أن يطوى قبل أن تتجدد معالم الحلم ، عشر سنوات ! سيمر كل يوم
من هذه السنوات طويل المدى بطيء الخطى !

وكان يعاود زيارة القرية الفينة بعد الفينة رجاء أن يطل اطلالة أخرى
إلى الماضي ولكنه لم ير أثراً للمنزل لا في الليل ولا في النهار
ولما سأل أهل القرية ظنوه مسحوراً مذهوباً بعقله وقالوا إنه لم يبق أحد
من السراة في هذه النواحي ، وليست هناك حديقة كالحديقة التي وصفها
وإنما كان هناك معبد بوذي عظيم قرب المكان الذي تحدث عنه ، ويمكن
أن يرى المشاهد بعض آثاره ، فكشف آتو آثار المعبد وسط أجمة متكاثفة
ورأى بها كتابة لم يستطع تفسيرها

ولم يحدث آتو أحداً بما رأى ، ولحظ أصدقائه وأقاربه تغيراً عظيماً في
صورته وأحواله ، وكان يزداد على توالى الأيام نحولاً واصفراراً ، وقال
الأطباء إنه غير مصاب بأى مرض من الأمراض ولكنه كان يتحرك كطيف
الخيال ، وقد كان من طبعه التفكير والعزلة ، ولكنه صار الآن لا يعبأ بشيء
ولا يسره ما كان يسره من قبل ، وهجر مطالعته الأدبية التي كان يؤمل

أن ينال من ورائها الشهرة ، وظنت والدته أن الزواج قد يشير طموحه ويشعذ
هيمته ويجدد رغبته في الحياة فصارحته برأيها فقال لها أنه قد آلى على نفسه
ألا يتزوج من الأحياء

وأخيراً جاء عام الدب وأقبل الخريف فلم يستطع أتو أن يتروض على
عادته ولم يقو على النهوض من فراشه ، وكان الموت يحب إليه ، ولم يعرف أحد
سبب موته وكان ينام نوماً عميقاً طويلاً حتى كان يظن أنه قد قضى نحبه
وفي ذات مساء وضاح أغريبننا هو مغرق في النوم إذ أيقظه صوت فتاة
فلما استوى جالساً رأى إلى جانب فراشه الخادمة التي أرشدته منذ عشر
سنوات إلى باب الحديقة المستورة ، وابتدرته بالتحية وتهلل وجهها وقالت له
« إني قادمة لأخبرك بأنك ستستقبل الليلة في أوهارو قرب كيأتو حيث
المنزل الجديد ، وقد أرسل لك هودج » واختفت

فعرف أتو أن ساعته دنت وأنه سيسلم الروح عند غروب الشمس ،
ولكن الرسالة سرته إلى حد أنه استطاع أن ينهض من فراشه ويدعوا والدته ،
ثم قص عليها لأول مرة قصة زواجه وأراها المحبرة التي أهديت له وطلب
إليها أن تضعها في أكفانه ولم يلبث أن فارق الحياة فدفنت معه المحبرة ،
ولكن قبل الجناز اختبرها العارفون فقالوا إنها صنعت سنة ١١٦٩ وأن
عليها طابع فنان عاش في عهد الامبراطور تسكاكيرا



فى الصومعة

(لكاتب الفرنسى أناتول فرانس)

(١٨٤٤ — ١٩٢٤)

وجدت صديقى جان فى الدير القديم الذى اتخذ من بوالى رسومه وعوافى
أطلاله منزلا فى السنوات العشر الأخيرة ، وقد تلقانى بالبشر الهادى ،
بشر رجل قد تخلص من أسار الآمال البشرية والخاوف والأوجال ،
وصحبنى إلى حديقته غير المنسقة حيث تعود أن يشعل غليونيه ويدخن فى كل
صباح بين أشجار البرقوق المغشاة بالطحلب ، وجلسنا هناك على مقعد
أمام منضدة واهنة لا تكاد تتماسك ، تحت حائط متهدم قد علتة الأزهار
من ناضر ومصوح ننتظر طعام الإفطار ، وكان ضوء السماء الماطرة يرتعش
خلال أوراق أشجار الحور التى كان يسمع لها همس ووسوسة من جانب
الطريق ، وكانت سحب شهب لؤلؤية تنجاب فوق رؤوسنا ، وكانت
نوحى إلى نفوسنا الحزن الناعم الرقيق ولكنه الحزن الذى لا يبيل من دائه
وعاجت به الذكريات على سوائف أحواله ومواضى عهوده فسألنى عن
صحتى وأحوالى ، ثم بدأ يقول فى صوت خفيض وقد تغضّ جبينه « إبنى
وإن كنت عادة لا أقرأ فان جهلى ليس موقى من المعرفه ، فقد علمت وأنا
فى وحدتى هذه ونسكى الذى كنت تسخر به فى عهودك السابقة أقول علمت

من الصفحة الثانية من إحدى اجرائد السيارة بظهور نبى حكيم وحسن
القصد إلى حد أنه يعلم الناس أن العلم وإجهاد الذهن هما المنبع الذى
تتدفق منه كل الآلام التى تعانىها الانسانية ، وهذا الرأى إذا كنت
لا أزال أذكر الصواب — ذهب إلى أنه من أجل أن نجعل الحياة بريئة
محبوبة فكل ما نحتاج إليه هو أن نطرح التفكير وننبذ تحصيل العلوم ،
وأن السعادة الوحيدة فى الدنيا لا توجد إلا فى البر والإحسان النزيه ، وأن
الأوامر والنواهي والحكم البالغة عيبها الوحيد هو أن قائلها قد عبر عنها فى أسلوب
بارع وبيان رائع دون أن يراعى أن صدم الفن بالفن ودفع العقل بالعقل
معناها أننا نقضى على نفوسنا ونذهب ضحية ليفوز العقل وينتصر الفن ،
وأنت تنصفنى أيها الصديق الهرم إذا اعترفت معى بأنى لم أقع فى مثل هذا
التناقض الذى يثير الإشفاق . وقد انقطعت عن الكتابة وأخلت بالى من
الفكر كل الخلو منذ تحققت أن التفكير شر وأن الكتابة لعنة ، وقد
وصلت إلى هذه النتيجة سنة ١٨٨٢ بعد طبع كتيب فى الفلسفة كلفنى
الكثير من الآلام ونقدته الفلاسفة لأنه مكتوب بأسلوب ناصع أخاذ ،
وحاولت أن أثبت فى هذا الكتيب أن الكون غامض غير مفهوم وغضبت
لما قيل لى أنى بطبيعة الحال لم أفهمه ، وهممت بالدفاع عن كتابى ولكن عند
قراءته عجزت عن أن أتبين معناه الحقيقى ، ووجدتنى غامضاً ملتبساً مثل
أعظم فلاسفة ما وراء الطبيعة ، وأن الدنيا قد أساءت إلى وغمطتنى حقى
لأنها ضنت على بشىء من الإعجاب الذى تتسخر به عليهم ، وقد منعنى

ذلك من التفكير فيما وراء الحس ، فانصرفت إلى علوم الملاحظة والتجربة ،
ودرست علم التشريح ، ومبادئه راسية القواعد مستقرة الأصول فقد مضى
عليها حتى اليوم ثلاثون سنة ، وقوامها أن نقيّد ضفدعة بدبايس على قطعة
من الفلين ثم نشقّها ونشرّحها لملاحظة القلب والشرابين ، ولكنني أدركت
بعد زمن قصير أننا لو اقتصرنا على هذه الطريقة لاحتجنا إلى وقت أطول مدى
من الحياة التي تنهبها لنا الدنيا لكي نصل إلى سر الأحياء العميق الخافي ،
وشعرت بغرور العلم الخالص الذي لا يضم بين أطرافه سوى جزء لانهاى
الدقة من المظاهر ، ويشارفه من هذا الجزء عدد محصور من الروابط والصلات
لا يكفي لخلق مذهب متين راسخ ، وفكرت دقائق في أن أقذف
بنفسي في مناطق الحرف وميادين الصناعة ، ولكن رقة قلبي منعتني
من ذلك ، وليست هناك محاولة مهما اختلفت ضروبها يمكننا أن نقول
عنها إنها سيأتى من وراءها من الخير أكثر مما يجيىء من الشر ، ولقد كان
كريستوف كولومبس يحيا حياة القديسين ويتشبه بالقديس فرانسيس ،
ولا ريب في أنه كان لا يفكر في كشف طريق جزائر الهند لو أنه
علم أن كشفه هذا سيكون سبباً لإراقة الدماء وأنه سيتمخض عن
ذبح أمّ عدة برمتها من ذوى الجلود الحمر ، وهم قوم مستوحشون غلاظ
الأكباد ولكنهم يحسون الألم ، أو لو أنه علم أنه سيجلب إلى الدنيا القديمة
— بسبب الذهب الذى يحمل إليها من الدنيا الجديدة — من الأمراض
والجرائم والمنكرات ما كان مجهولاً من قبل ، وكنت أظهر النفور والامتناع

عند ما كان يفصح لى بعض الأمناء المحلصين بأن أغنى بالأسلحة النارية
والفرقعات التى كسبوا من وراء الاتجار بها ثروات طائلة ، أثلت مكاتهم
واستحالت شكوكى حقيقة فى أن الحضارة كما يسمونها إن هى إلا همجية
علمية ، وحاولت أن أصير همجياً ، ولم تعترضنى صعوبات فى إبراز الفكرة
من حيز الفكر إلى مجال العمل فى هذا الإقليم الصغير النأى الواقع على
مسافة ثلاثين فرسخاً من باريز والذى يتناقص عدد سكانه تدريجياً ، وأنت
قد رأيت فى طريق القرية منازل خاوية على عروشها وقد بدأ العفاء يدب
إليها ، وأكثر أبناء المزارعين ينزحون إلى المدن تاركين الريف الذى
أصبحت أراضيه موزعة توزيعاً دقيقاً لا يترك لهم وسيلة لتحصيل القوت .
ويظهر أنه قد حان الوقت الذى سيشتري فيه أحد رجال الأعمال البارعين
هذه الأراضى جميعها وينشئ فيها الأملاك الواسعة والضياع الفسيحة
وسيعتفى من الريف المزارع الصغير كما يختفى الآن من المدن التاجر الصغير
رويداً رويداً ، ولقد دفعت ستة آلاف فرنك واشتريت بقايا ذلك الدير
القديم بسلمه الحجرى الأنيق والبرج المستدير وتلك الحديقة التى تركتها نهياً
لعبث الزمن ، وهنالك أقضى أوقاى فى مراقبة السحب السائرة فى السماء
أو فى ملاحظة الحشائش وسيقان الجزر المستطيلة ، وعندى أن هذا أجمل من
تشرىح الضفادع أو من اختراع نوع جديد من النسافات .

وعندما يكون الليل جميلاً ساجياً وأكون مستيقظاً أحرق فى النجوم
التي تصبأنى النظر إليها حتى نسيت أسماءها ، وأنا لا أرى زواراً ولا أفكر

في شيء ، ولست أكّد الفكر لأستميلك إلى عزّلتى أو لأبعدك عنها .

وإني لسعيد بأن أقدم لك عجة ونبيداً وتبغاً ، ولكنى أصارحك بأن
الأجل بي والأحب إلى نفسى هو أن أقدم لكلى وأرانى وحمى قوتها
اليومى الذى يجدد نشاطها ويرد عليها قوتها وهى لا تسيء استعماله بتأليف
رواية تشوش الذهن وتثير الخاطر أو بعمل كتاب فى التشريح يسمم الوجود
ويبغض إلينا الحياة . »

وفى تلك اللحظة قدمت لنا بيضا وقنينة من النبىذ الأحمر الخفيف فتاة مليحة
المنظر متوردة الخدين لها عينان زرقاوان مشرقتان ، وسألت صديقى جان
هل هو يكره الفنون والآداب من صميم قلبه كما يكره العلوم ؟ فأكد لى قائلا
« لا . إن هناك عنصراً من عناصر الطفولة فى الفنون ، وهذا العنصر مجرد
العداء الشديد من سلاحه ، إنها ألعيب أطفال ، والنحاتون والمثالون هم
ملوثو الصور الجميلة وصانعو العرائس ، وهذا كل ما فى الأمر ، وأى ضرر
فى هذا ؟ بل ينبغى لنا أن نعتز بالجميل للشعراء ، ولو لم يكن ذلك إلا لأنهم
يستعملون الألفاظ بعد أن يجردوها من المعنى الجدى وسنبقى شاكرين لهم
صنيعهم إذا كانوا لا يقبلون على هذا اللون من التسلية بمجد وحماسة ، وإذا
هو لم يتركهم شديدى الأثرة بائنى الصلف سريعى الغضب شديدى الغيرة والحسد
كالمرورين السلوبى الرشد ، وهم فى الواقع يترقبون أن يحصدوا الشهرة من وراء
هذا الزخرف الباطل ، وعندى أن هذا وحده دليل لا ينقض على خبلهم
وجنونهم ، لأن طلب الشهرة هو أعجب الوسوس التى تدور بالأذهان

المریضة وأبعثها على الضحك وأكثرها شراً وإيذاءً ، ولا أستطيع إلا أن
أرثى لهم ، والعمال هنا يغنون على المحراث الأغاني القديمة التي تغنى بها
آباؤهم ، والرعاة وهم جالسون على جوانب التل يحفرون بأطراف سكاكينهم
صوراً صغيرة من جذور خشب البقس ، وربات البيوت يصنعن من العجين
أرغفة في شكل حمام وقماري أيام الأعياد ، وهذه فنون بريئة لا عيب
فيها ولا تسرى فيها سموم الكبرياء ، وهي سهلة هينة ملائمة للضعف البشري ،
وعلى تقيضها فنون المدن فانها تستلزم مجهوداً وكل مجهود ينتهى بالألم .

ولكن الذى يكرب إخواننا البشر ويمسخهم مسخاً ويشوهمهم أقبح
تشويه هو العلم ، لأنه يوجد لهم علاقات بأشياء لا تتناسب مع قوتهم ،
ويفسد كل شرائط الاتصال الحقيقى بين الانسان والطبيعة ، وهو يستعظمهم
على الفهم فى حين أنه من الجلى أن الحيوان خلق ليشر لا ليفهم ،
والعلم ينمى الذهن — ذلك العضو العديم الفائدة — على نفقة الأعضاء
الأخرى النافعة التى نشترك فيها مع الحيوانات ، وهو يجعلنا نقاوم حب
الاستمتاع باللذات التى نشعر بميل غريزى إليها ، وهو يؤثر همومنا ويشعل
جهرتنا بمرهوب الأوهام ويرينا من المخاوف والمفرعات ما ليس له وجود
إلا عن طريقه وبتأثيره ، وهو يثبت ضؤولتنا بقياسه الأجرام السماوية ،
ويبين قصر حياتنا بنظره إلى قدم الدنيا ويكشف عن عجزنا لأنه يفضى بنا
إلى الاشتباه فيما لا نستطيع أن نراه أو أن نلمسه ، ويظهر جهلنا لأنه يوقفنا
على الدوام حيال المجهول ، ويجلى لنا شقاءنا بمضاعفة الأشياء التى تثير
طلعتنا دون أن يمكننا من الإجابة عليها

ولست أقصر الحديث على بحوثه النظرية الخالصة ، فإننا عند ما ننقل
إلى التطبيق العملي نرى أن مخترعاته ليست سوى وسائل طريفة للتعذيب
تدل على المهارة وآلات تقضى بالموت على أفراد الإنسانية التعسة الأسيفة .
زرأى مدينة صناعية أو انزل إلى منجم من المناجم وانظر تر من
المنظر ما يفوق أشد ما يتصوره رجال الدين عن النار الموقدة وجحيم
الآخرة ، ومع ذلك فإننا بعد إطالة التفكير يبدأ يخالفنا الشك في كون
إنتاجات الصناعة ليست أقل إضراراً بالفقراء الذين يصنعونها منها بالأغنياء
الذين يستعملونها ، وتساءل أليس الترف هو أسوأ أمراض الحياة وعللها ؟
ولقد عرفت أقواماً من كل طبقة من طبقات المجتمع ولم ألق في حياتي
أحداً أصابه من البؤس وسوء الحظ ما أصاب سيدة من ذوات المسكينة في
باريز ، وهي امرأة حسنة كانت تنفق على ملابسها خمسين ألفاً من
الفرنكات كل سنة وهذه حالة تقضى بصاحبها إلى مرض الأعصاب
العزیز الشفاء »

ثم صبت لنا القهوة الفتاة القروية الحسنة ذات العيون الصافية وكانت
تبدو عليها أمارات البلاهة القانعة .

فأشار إليها صديقي جان بعنق غليونه وكان قد ملأه في نفس الوقت
وقال « انظر إلى هذه الصبية ، إنها تعيش على الخبز ولحم الخنزير المملح ،
وكانت أمس تحمل جزمًا من القش على المذراة . وإنك لتبصر الآن بقايا
منها عالقة بشعرها وهي سعيدة ، وبريئة في كل ما تفعل لأن العلم والحضارة

قد خلقا الخطيئة كما خلقا المرض ، وإني لأدانيها سعادة لأنى مثلها خالى
البال غافل عما مضى وما يتوقع ، فأنا لا أفكر فى شىء ولا أكّد ذهنى
أبداً ، ولا أقوم بعمل شىء ومن ثم لا أخشى التورط فى الخطأ ، وأنا
لا أزرع حديقتى خشية أن أعمل عملاً أجهل عواقبه . وترانى من أجل
ذلك مستمتعاً بالصفاء وراحة البال »

فقلت له « لو كنت فى مكانك لما أمكننى أن أشعر بنفس الطمأنينة ،
ومحال أن تكون قد نبذت الفكر ومحوته من نفسك كل المحولتطم الراحة
الخالصة ، ولا تنس أننا مهما فعلنا فإن الحياة هى العمل ونتائج الكشف
العلمى أو الاختراع إنما تخيفك لأنك لا تستطيع أن تقدر مداها ، ولكن
اعلم أن أبسط الأفكار أو أيسر الأعمال الفطرية يتضمن كذلك نتائج
لا يمكن استقصاؤها ، وإنك لتفرط فى الثناء على العقل واكبار العلم والصناعة
إذا اعتقدت أنها تنفرد بحوك نسيج المصائر البشرية ، وكثير من الشباك
تنسجها القوى اللاواعية ، وهل نستطيع أن نتنبأ بتأثير أصغر حصة أزيحت
من جانب جبل ! إنها قد تؤثر فى مصير الانسانية تأثيراً أبلغ من طبع كتاب
« المنهج الجديد » أو اكتشاف الكهرباء .

وليس ظهور الاسكندر ونابليون على مسرح الدنيا بالحادث الذى يمكن
أن يرد إلى أسباب فكرية أصيلة مقصودة ، وليس هو كذلك من النوع
العلمى ، ومع ذلك فإن مصير الملايين من البشر قد تأثر بظهورها واشتباك
فيه ، وهل تظن أننا ندرى قيمة ما نعمله ومغزاه الحق ، وفى كتاب ألف

ليلة وإيلة حكاية لا يمكننى أن أمسك عن تفسيرها تفسيراً فلسفياً ، وأعنى بذلك حكاية التاجر العربى الذى جلس وهو عائد من الحج إلى مكة على حافة عين جارية لياً كل بعض التمر ، وكان يرمى بنواه فى الهواء ، فحدث أن واحدة من هذا النوى قتلت مخلوقاً غير ظاهر — أحد أولاد الجان — ولم يكن ذلك التاجر التعس يحلم أن رعى النواة سيجر عليه ذلك ، ولما أخبر بهذه الجريمة انعقد لسانه من الخوف والذعر ، ولم يكن قد أعمل الفكر من قبل فى العواقب المحتملة لأى عمل نعمله ، فهل نستطيع أن نعلم إذا رفعنا سواعدنا اننا سوف لا نصنع جنياً فى الهواء كما حدث للتاجر؟ ولو كنت فى مكانك لما استطعت أن أشعر بالراحة التامة ، ومن أدراك أن أقامتك الهادئة فى هذه الصومعة التى زاد فيها نمو اللبلاب وغيره من النباتات ليست عملاً صادق التأثير وانها أبعد أثراً وأجل شأنًا من كل كشف العلماء وانها ستمخض عن نتائج رهيبية مروعة فى مقبل الأيام !

« هذا غير محتمل ولا مرجح »

« ولكنه غير مستحيل ، وأنت تعيش عيشة غريبة وتتحدث حديثاً غير مألوف يمكن أن يجمع ويطبع ، وهذا كاف فى ظروف خاصة ليكون منك بكرهك صاحب ديانة جديدة ، وقد يدخل فى ديانتك ملايين الناس فيمسهم منها الضر وترمى بهم مراعى الشقاء ، وقد يقتلون باسمك الألوفا من اخوانهم البشر »

« ينبغي للانسان إذن أن يموت ليحظى بالبراءة ويظفر بالهدوء
والسكينة »
« أعد النظر فيما تقول فان الموت عمل لا يمكن أن نحصر ما يأتي وراءه
من المحتملات والممكنات » .



الغلام الأبكم

للروائي الإسباني سيندالفو دي لافنت

كان يمكن أن يكون دون برناردو جواز الزم مستمتعاً بتلك السعادة الزائلة المتاحة للأحياء لولا نكبة منزلية كانت تكدر صفوه وتنغص عليه سعادته ، كان له حانوت خياطة رائج معروف اسمه « الكابادوسيا » وكان الذى زين له اختيار هذا الاسم وحببه إليه تاجر متنقل من تاراسا ، وقد أوحى إليه هذا الاسم لما لحظ أن اللوحة المعلقة خارج الحانوت كانت تقرأ « حانوت خياطة باريزى كبير — إخصائى فى عمل القبعات »

« أخطر ببالك أن حوانيت الخياطة لا تصنع القبعات ؟ وإذا كنت إخصائياً فى تطريز المعاطف ! انك إخصائى فى عمل القبعات فيلزم أن تسمى حانوتك « الكابادوسيا » فرأى هذا التاجر الطموح أن الاقتراح حازم ومقبول فأبدل العلامة بأخرى ونقش عليها الاسم الجديد بحروف سود مشوبة بحمرة

وكما قدمت كانت أسباب السعادة كلها مستكملة عنده إلا مسألة واحدة ، كان عمله يدر عليه المكاسب ، وكانت القبعات تباع فى عاصمة الأندلس بسهولة حيث كان كل عامل يرتدى قبعة رثة يرمى بأنه سكير مفرط —

كما هي حقيقة الأكثرين — وكانت أكثر تلك القبعات تشتري من
حانوت دون برناردو ، وكانت تصنع من أقمشة يجلبها تاجر تاراسا المتنقل ،
ومع ذلك كله كان لدون برناردو ابن أحزن قلبه ونفي السرور عن ساحته
كان هذا الابن أول ما رزق من الأولاد بعد زواجه بدونا ليزا ، وهي
سيدة قوية البنية اشتهرت بأنها كانت في صباها محبوبة بفنون من الملاحاة
والرقاة ، وكان ابنه هذا منذ مولده سليم البدن ، وكان السنيور جوازالز
يحفظ صورتين من جرائد مدريد جنبا إلى جنب ، إحداها كانت تشمل
صورته وهو عضو لجنة مثلت بين يدي وزير الداخلية لتقديم عريضة عن
عمل طريق يصل بين بلده وبعض القرى غير المشهورة ، والصورة الأخرى
كانت من جريدة محلية وتشمل اعلان ميلاد ولده الوحيد « ان السيدة
الفاضلة حرم صديقنا المحترم صانع القبعات المعروف دون برناردو جوازالز
قد رزقت طفلا »

وتحقق ما كان ينبىء عنه جسم الصبي من القوة كلما تقدم في السن ،
فقد كان دائما غلاما موفورا الصحة قوى العضل ، ولكنه وصل السن التي
نصب فيها نيرون امبراطورا دون أن ينطق بكلمة واحدة ، أى أنه كان
يبلغ الآن السابعة عشرة من عمره ، وقد أخذ ينبت له شارب خفيف

وكان يلبس فوق منكبيه الوثيقي التركيب — وهو فرح مسرور —
قبعة فاخرة من أحسن ما أخرج حانوت أبيه ، ولكنه مع كل ذلك لم يفه
قط بكلمة بابا أو ماما أو بأى كلمة أخرى من كلمات الأطفال ، وقد فحص

حلقة كل أطباء المدينة واجتمعت آراؤهم على أنه سليم ، وتمسكوا بأن وارث الكابادوسيا يمتلك أعضاء النطق سليمة كاملة ، ومن ثم كان يجب أن يتكلم إذ ثبت لهم ببرهان لا يحتمل النقد أنه ليس أصم

فلماذا لم يتكلم ؟ حقيقته أن أكثر الأحاديث التي كانت تدور في منزل أبيه لم تكن بوجه خاص مسلية ولا شائقة ، ولكن مع ذلك كانت تعرض فرص للفكاهة ، مثلاً عند ما كان يظهر دون برناردو أمام أسرته وهو في لباس المغاربة قبل أن يذهب إلى حفلة الرقص في الكازينو ، فقد كان منظره إذ ذاك يبعث على الإغراب في الضحك وكانت تبدو على « برنارديتو » من وقت لآخر علامات الاكتئاب والحزن ، فيمضي الساعات متكئاً على الأريكة ، وكان ولوعاً بأن يمشى منفرداً ويقطع مسافات بعيدة ، وكانت تسيل دموعه إذا سمع موسيقى مؤثرة !

كان اليوم يوم أحد السعف ، فبعد أن سمع السنيور جوازالز القداس في الكنيسة جلس الى المائدة ليتناول الغداء مع أفراد أسرته ، دوناليزا و برنارديتو وروزيتا ، والأخيرة عذراء ممشوقة القوام رشيقة الحركة ، وقد زادها الثوب الجديد بهجة وجمالاً ، وقد لبسته في ذلك اليوم لئلا تفقد جمال أناملها الصغيرة ، وهي العقوبة التي تنزل بالفتيات اللواتي لا يبرزن في ذلك العيد .

كانت روزيتا ابنة شقيق برناردو ، وقد تبناها وهي طفلة ، وكان أبوها قد مات قبل مولدها بشهور قلائل ، وتوفيت أمها وهي تلدها ، وكانت أصغر

من برنارديتو بقليل ، فقد ولدت بعد مرور ست ساعات من نفس اليوم
الذى ولد فيه ابن عمها الصامت ومن نفس الشهر ونفس العام
كان السنيور جوازالز قد انتهى من إطرء جمال ابنة أخيه ، وبينما
كانت الخادمة تضع وعاء الحساء في وسط المائدة انطلق صوت قوى منغوم
بالكلمات الآتية « يا أبتى إني أريد أن أكون جنديا »

فاختفت العذراء على الفور ، وصاحت دوناليزا وأوشكت أن يغمى
عليها ، ووثب دون برناردو من مقعده وقد اهتز من التأثير

وتغلبت العذراء على خوفها الفجائى وأخذت تنظر من شق خلف الباب ،
وطوقت دوناليزا ابنها بيديها ، وشرعت تقبله وترطب خديه بالدموع ،
أما دون برناردو فقد أسرع إلى الطبيب لأنه خالجه فكرة أن نطق ابنه
الفجائى وانحلال عقدة لسانه يستلزم عناية الطبيب ، وبعد مرور دقائق
على ذلك كان جوازالز وزوجته فى الغرفة الصغيرة فى حوار مع طبيب الأسرة
« هل أنت متأكد من أنك لم تخطئ ! »

« ما الذى قاله ؟ »

« قال إنه يريد أن يكون جنديا ، إنها حالة غريبة أيها الطبيب ،
أليست كذلك ؟ »

« إنها غريبة فى الظاهر ، ولكن لماذا قال ذلك ولم يقل شيئا آخر ،
لنذهب لفحصه »

ولما دخلوا غرفة الطعام كانت روزيتا وبرناديتو لا يزالان جالسين
كل منهما تجاه الآخر ، وكان برنارديتو يرنو إليها بعينين مشرقتين

صغيرتين ، وكان بعينه رقّة وبوجنتيه تورّد يمان عن أمره ويكشفان جلية سره ، وكانت روزيتا تبتسم وقد صبغ الحياء وجنتيها مما دل على أنها أوتيت بداهة جنسها اللطيف

وكان الطبيب عليا بأسرار النفس وخفايا القلب فأشار إلى برناردو وزوجته بأن يتبعاه لعقد جلسة استشارة ثانية في الغرفة الصغيرة خلف الحانوت .

— « هذا الفتى يحب ابنة عمه »

— يا دكتور :

— « أنا أقول إنه هائم بحبها ، غريق في لجة هواها والأحسن أن

تزوجاه بها »

— ولكن ما علاقة ذلك . . . ؟

— « تقصدون علاقة ذلك بعجزه عن الكلام وتعطيل وظائف

النطق . ولكن لماذا تعجبون من ذلك يا أصدقائي الأعزاء ! ألا تعرفون

ما يستطيع أن يفعله الحب بصبي ! وكيف يستطيع أن ينومه ويوقعه تحت

تأثير غريب ! »

— من أجل ذلك كان لا يقوى على الكلام !

— « هذا هو السبب

— لقد أحب دانتى فى التاسعة من عمره ، وليس عندنا برهان على

أن عاطفة كهذه لا تبدأ قبل ذلك ، وأنا مقتنع بأننا بازاء حادثة حب مبكر

وأن هذا الصبي كان طوال حياته يحب ابنة عمه ، وقد ملأ نفسه هذا

الحب أثناء حياته كلها ، وأخيراً جاشت غواربه وفاضت سيوله فكسرت

الخواجز والسدود وأنطقته بالكلمات التي رن صداها في أذانكم «

— ولكن لماذا قال إنه يود أن يكون جنديا ؟

— ألا تعلم أن روزيتا مجنونة بالجنون ! وأنها تخف إلى الشرفة لترى

مرور الفرسان ، وأنها في هذا الصباح كانت تراقب هذا الملازم ؟

فسأل دون برناردو إبنة بصوت يهتزم من العاطفة : هل هو حقيقة يهوى ابنة عمه ؟ وعند ذلك أخذ الصبي الصامت يتكلم لمدة أربع ساعات متوالية وهو مهتاج المشاعر . وكان يحاول تصوير عواطفه وإظهار عمقها ، وتأثرت روزيتا بدفاعه الماهر فتمتعت إنها كذلك تحبه

ولم يصبح ابن دون برناردو جنديا ، واستخدم مواهبه في مد حدود حانوت عمل القبعات . ومرت سنوات اتسع فيها حانوت الكبادوسيا ، وضم إليه حانوت آخر ومخزن أحذية

وعملا بنصيحة تاجر تاراسا المتنقل أدخل تعديل جديد على اللوحة ، وكان الاقتراح في هذه المرة ملائما صالحا مثل الاقتراح الأول فصار اسم المحل « آسيا الصغرى »



الحلم

للروائي الروسي إيفان ترجنيف [١٨١٨ — ١٨٨٣]

(١)

كنت في تلك الأيام مقيماً مع والدتي بمدينة صغيرة على ساحل البحر ،
وكنت في السابعة عشرة من عمري ، ولم تكن والدتي قد تجاوزت الخامسة
والثلاثين ، فقد تزوجت صغيرة ، ولما مات والدي كانت سني لا تعدو
السابعة ولكنني أذكره جيداً ، وكانت والدتي شقراء الشعر ، ليست بالطويلة
وذات وجه فاتن ولكن تعلوه دائماً سيئات الحزن ، وكان صوتها ليناً حسيماً ،
والحياء بادياً في حركاتها ، كانت في صباها باهرة الجمال رائعة الحسن
وبقيت إلى النهاية جذابة حسنة ، ولم أر في حياتي عيوناً أعمق ولا أرق
وأكثر حزناً ، كلا ولا شعراً أنعم وألطف ولا يداً أحلى وأخبل ، كنت
أعبدتها عبادة وكانت تحبني ، ولكن حياتنا لم تكن زاهية مشرقة ، كان
يظهر أن حزناً خفياً يائساً لا تستحقه يقرض في جذور كيائها ، وكان
لا يمكن أن نعزو سبب هذا الحزن إلى مجرد فقد والدي — ولو أن فقدته
كان خسارة كبيرة لها . وعلى الرغم من أنها كانت مدلهة بحبه ولوعة كل
الولوع بالتعريج على ذكرياته . . . لا كان في الأمر شيء مخبأ لا أعرفه
ولكنني كنت أشعر بوجوده ، كنت أشعر به شعوراً مبهماً غير واضح —

ولكنه كان شعوراً قوياً — كلما نظرت إلى تلك العيون الوادعة غير المتغيرة
وإلى تلك الشفاه غير المتغيرة أيضاً المطبقة لا في مرارة ولكن كأنما كانت
دائماً متخذة لها هيئة واحدة لا تعدوها

قلت إن والدتي كانت تحبني ، ولكن كانت تمر أوقات تمتقني فيها كل
المقت حتى يصير حضوري مضايقة لها عسيرة الاحتمال ، وفي أمثال تلك
الأوقات كانت تبغضني بغضاً شديداً على غير إرادتها ، وكانت تستبشع ذلك
فيما بعد وتلوم نفسها باكية وتضمني إلى قلبها ، وكنت أنسب نوبات
الكراهة الوقتية تلك إلى اعتلال صحتها وإلى همها المللزم وسوء حظها ،
ويمكن إلى حد ما — أن يكون الباعث لها على تلك المشاعر المعادية لي
ما كان يستأثر بنفسى فجأة الحين بعد الحين من الميول الشريرة والبواعث
الإجرامية ، وكنت أجهل تعليلها ، ولكن تلك البدوات السيئة لم يتفق
حدوثها في أوقات نوبات الكراهة ، وكانت والدتي لا تقلع عن لبس سود
التياب كأنها في حداد ، وكنا في ظروف حسنة ولكن كنا لا نكاد
نعرف أحداً .

(٢)

كانت والدتي قد حصرت كل فكرها فيّ ، وأوقفت كل همها عليّ .
كانت حياتها قد اندمجت في حياتي ، وليس هذا النوع من العلاقة بين
والدين والأبناء دائماً في صالح الأبناء ، بل هو قد يضر بهم ، وفضلاً عن

ذلك كنت الابن الوحيد لوالدتي . . . وكل ابن وحيد ينشأ في الغالب على طريقة ذات جانب واحد ، ففي تربيتهم وتعهدهم يفكر الآباء في أنفسهم كثيراً كما يفكرون فيهم ، وليس هذا هو الطريق السوي . . . ولم يفسدني ذلك وكذلك لم يشدّ مني (إحدى تلك الحالتين هي حظ الأولاد الوحيدين) ولكن أعصابي ظلت إلى أمد ما مضطربة ، وعلاوة على ذلك كانت صحتي في أكثر الأحيان واهنة مثل صحة والدتي التي كان وجهي يشبه وجهها ، وكنت أتجنب صحبة أترابي من الأولاد ، كنت منقطعاً عن الناس جميعاً وحتى مع والدتي كنت قليل الكلام ، كنت ولوعاً بالقراءة والمشيات المنفردة وبلاسترسال مع الأحلام والايغال في عالمها ، ومن الصعب أن أقول عم كانت أحلامي حقيقة في بعض الأوقات ، كنت كأني أقف على باب منفرج قليلاً وخلفه أسرار مجهولة ، كنت أقف وأنتظر وأنا من الانفعال والاهتياج بين الحياة والموت ، وكنت لا أخطو نحو الباب ولكن مع ذلك أفكر فيما وراءه وأقف مترقباً حتى يغشى على أو يستولى على الناس ولو كان في طبعي الشعور لتوفرت على نظمه ولو كنت أشعر بميل إلى الدين لذهبت إلى دير ، ولكن لم تكن ميولي من هذا النوع فأخذت أضرب في عالم الأحلام وأنتظر

(٣)

ذكرت توا إنه في بعض الأوقات كان يستولى على النوم تحت تأثير

غوامض الأحلام وسوانح الهواجس وكنت أنام كثيراً في كل وقت ، وكانت الأحلام تلعب دوراً مهماً في حياتي كانت لي كل ليلة أحلام لأنساها وكنت أعلق عليها أهمية وأعتبرها تحذيرات وأجتهد في استفسار معناها واكتناه سرها كان بعضها يعاودني المرة بعد المرة ، وكان يظهر لي ذلك غريباً مدهشاً ، وكان هناك على الأخص حلم واحد قد تركني مبطل الفكر مضطرب الخاطر إذ رأيت أني أسير في شارع ضيق مرصوف بالحجارة رصفاً رديئاً بمدينة عتيقة الطراز بين بيوت حجرية كثيرة الطبقات بارزة السقوف ، كنت أبحث عن والدي الذي لم يكن مات وإنما اختبأ واحتجب عنا لسبب من الأسباب وأقام في منزل من تلك المنازل ، ولذا ولجت بوابة منخفضة مظلمة واخترقت ساحة طويلة مزدهجة بكتل من الأخشاب والحديد واتخذت طريقاً أخيراً إلى غرفة صغيرة ذات نافذتين مستديرتين ، وفي وسط تلك الغرفة كان يقف والدي مرتدياً ملابس النوم وقد أشعل غليونه وكان أبعد ما يكون شبيهاً بوالدي الحقيقي . كان طويلاً نحيفاً أسود الشعر مقوس الأنف ذا عيون حادة نافذة متجهمة ، كان يبدو لمن يراه إنه في سن الأربعين ، وكان قد ساءه أني وجدته ، ولم أكن أنا كذلك مسروراً لأنني رأيته فوقفت حائراً ، فابتعد قليلاً وأخذ يتمتم ببضع كلمات ، وطفق يمشي جيئةً وذهوباً بخطوات قصيرة . . . ثم ابتعد رويداً رويداً دون أن ينقطع عن تتممته ، وكان يتلفت باستمرار من فوق كتفه ، ثم زادت الغرفة اتساعاً وغابت في ضباب ، وكبر على فقدان والدي في التو واللحظة وعدوت وراءه

فلم أستطع رؤيته ، ولم أسمع إلا تمتمة المقتضبة كالدب المزجر فهلع قلبي من
الخوف وانتبهت من رقادى ولم أستطع النوم إلا بعد زمن طويل
وأضيت اليوم التالى مفكراً فى ذلك الحلم وبطبيعة الحال لم أستخلص
منه شيئاً

(٤)

أقبل شهر يونيو ، وصارت المدينة التى كنت أعيش فيها مع والدتى
مرحة مزدهرة ، وكان فى الميناء عدد من السفن ، وكنت تبصر بالمدينة وجوهاً
كثيرة لم تكن رأيتهما من قبل ، وكان يحلولى فى تلك الأيام أن أهيم على
ساحل البحر وأمر على مشارب القهوة والفنادق أتصفح وجوه الملاحين
المختلفة اختلافاً واسعاً ، وأرى غيرهم من الناس الجالسين تحت المظلات
إزاء موائد بيض صغيرة وأمامهم أقداح الجمعة

ولما مررت ذات يوم على إحدى القهوات رأيت رجلاً استرعى انتباهى
كان لابسا حلة سوداء كاملة وعلى رأسه قبعة قشية مسدولة إلى ما فوق
عينيه ، وكان جالساً فى هدوء تام وذراعه مطويتان على صدره ، وكانت
خصل شعره المتطلعة المستوفزة تهطل مقاربة لأنفه ، وكانت شفاته الرقيقتان
قد أخذتا بغليون صغير ، وقد ظهر لى أن هذا الرجل معروف عندى ، وكانت
ملامح وجهه الأصفر القاتم مطبوعة فى ذاكرتى بوضوح وجلاء فلم أستطع
أن أتحاشى الوقوف أمامه ، ولم أستطع أن أمتنع عن أن أسأل نفسى «من

هذا الرجل ؟ ولما أحس الرجل بنظراتي العامدة رفع عينيه السوداوين
النافذتين وصوبهما إلى فخرجت منى على غير رغبة « آه »

كان الرجل والدى الذى أبحث عنه ، الوالد الذى أريته فى حلمى !
لم يكن هناك مكان للخطأ ، وكانت المشابهة ظاهرة جليلة ، حتى نفس
البذلة التى لفت ساقيه النحيفتين فى أطرافها كانت تشبه فى لونها ورسمها
ملابس النوم التى رأيت فيها والدى فى الحلم ، فدهشت « ألسن الآن نائماً »
لا . . . كنا فى النهار وحولى جموع الناس فى لغط وضجة ، وكانت الشمس
تنير فى كبد السماء الزرقاء جلواء مشرقة ، ولم يكن أمامى شبح من الأشباح
وإنما رجل حى

ذهبت إلى مائدة غير مشغولة ، وطلبت قدحاً من الجعة وجريدة
وجلست قرب هذا الشخص الغامض

(٥)

ووضعت الجريدة فى مستوى وجهى وتابعت فحص هذا الغريب ،
ولم يكن يتحرك إلا نادراً وإنما كان يرفع رأسه من الحين إلى الحين ، كان
يظهر عليه أنه ينتظر قادماً ، أخذت أسترق النظر إليه وأحدق فيه . . . وفى
بعض الأوقات كنت أتوهم أنى متخيل كل ذلك ، وأنه ليس هناك فى
الحقيقة من مشابهة ، وأنى قد القيت العنان لخدعة من خدع الخيال التى

يختلط فيها الوعي باللاوعي ، ولكن أغريب كان يتحول في مقعده بفتنة
أو يرفع رأسه فأهم بأن أصبح ثانية : لقد رأيت والدي الذي أريته في الحلم
أمامي للمرة الثانية ! وأخيراً لمح الرجل مراقبتى له غير المرغوب فيها ونظر
إلى أولا في دهشة وتعجب ثم أخذ ينظر ناحيتى بامتعاض ومضايقة ،
وكاد يهم بالقيام فسقطت منه عصا صغيرة مسندة إلى المائدة ، فوثبت في
نفس اللحظة والتقطتها وناولته إياها وكان قلبي ينبض نبضاً عالياً

فابتسم ابتسامة متكلفة وشكرنى ، ولما دنا وجهه من وجهى رفع حاجبيه
وفتح فمه قليلاً كأنما قد خالج نفسه شيء وعرض له خاطر ، وقال لى بصوت
جاف قاطع أغن « إنك شاب مؤدب جداً ، وهذا شيء نادر في هذه الأيام
اسمح لى أن أهنتك ، لابد أنك نشأت نشأة طيبة ! »

ولست أتذكر بدقة بماذا أجبتة ، وإنما تلا ذلك محادثة بيننا علمت
منها أنه من أبناء وطننا وأنه آب من أمريكا من زمن غير بعيد حيث
أمضى سنوات عدة ، وكان على وشك العودة إليها وسمى نفسه بارون ...
ولم أستوضح الاسم بجلاء ، وكان مثل والدى في الحلم يختم كل ملحوظة
بتمتمة داخلية غير واضحة ، وأراد أن يعرف لقبى ولما سمعه دهش ، ثم
سألنى : هل عشت طويلاً في المدينة ومع من كنت أعيش ، فأخبرته أنى
مقيم مع والدتى

« ووالدك » ؟ « والدى مات من زمن بعيد » فسأل عن اسم والدتى
وضحك ضحكة مرتبكة واعتذر منها قائلاً إنه قد تسلفت إلى إخلاقه بعض

عادات الأمريكان وأساليبهم ، وإنه مخلوق غريب في جملته ، وأبدى
رغبته في الوقوف على عنواننا فأخبرته به

(٦)

وأخذت تخف وطأة الانفعال الذي تملكني عند بدء الحادثة ، وشعرت
بأن لقاءنا هذا غريب وليس أكثر من ذلك ، ولم ترقني الابتسامة التي
كان يستجوبني بها البارون ، ولم أحب المعنى البادى في عينيه وهو يصوبهما
إلى كالابر ، كان في عينيه شيء وحشي مفترس غلاب موهن للأعصاب ، ولم
أر تلك العيون في الحلم ، كان غريباً وجه هذا البارون ! كان وجهه شاحباً
كليلاً وفي نفس الوقت يدل على أنه لم يتجاوز سن الشباب ، ولكن شبابه
كان منفراً لا تأنس إليه النفس ولا تستطيه ! ولم يكن لأبي الذي رأيته
في الحلم تلك الندبة العميقة المنحدرة من فوق جبين صاحبي الجديد والتي لم
ألاحظها إلا عند اقترابي منه

ولم أكد أخبر البارون باسم الشارع ورقم المنزل الذي كنا نسكنه حتى
جاءه من خلفه زنجى طويل القامة ملتف إلى جبينه في عباءة ولمس كتفيه
لمسة خفيفة فتحول إليه البارون وهتف قائلاً : آه . أخيراً ! ثم التفت إلى
وانحنى لى انحناء خفيفاً وعاد مع الزنجى إلى القهوة وتركنى تحت المظلة ، وقد
ترقبت باهتمام عودته ، ولم يكن غرضى من ذلك العودة إلى محادثته (فقد
كنت لا أدري فيم أحادثه) وإنما على الأكثر لأننا كد من تأثرى الأول

ولكن مرّ على ذلك نصف ساعة ومرت ساعة أخرى ولم يظهر البارون ،
فرجعت إلى القهوة ومررت بكل قاعاتها ولكن لم أر الزنجى ولا البارون ...
لا بد أنهما خرجا من باب خلفي ... ثم شعرت بألم يسير في رأسي فمشيت
على شاطئ البحر لاستنشاق الهواء النقي وقصدت حديقة كبيرة خارج المدينة
مضى عليها مائتا سنة ، وبعد أن قضيت ساعات متجولاً في ظلال أشجار
البلوط الكبيرة الضخمة وأشجار الداب عدت إلى منزلي

(٧)

وحين أبصرتني الخادمة في الردهة هرولت إلى مهتاجة منفعلة ، وعرفت
من ملامح وجهها أنه حدث في المنزل حادث أثناء تغيبى . وحقيقة علمت
أنه منذ ساعة ارتفعت من غرفة والدتي بغتة صيحة مخيفة ، ولما أسرع إليها
الخادمة وجدها ملقاة على الأرض في نوبة إغماء استمرت دقائق عديدة
واستعادت والدتي ثانية شعورها ، ولكنها اضطرت إلى الانطراح ، وكان
يظهر عليها الخوف والدهشة ، ولم تنطق بكلمة ولم ترد على سؤال ، وكانت
تدير الطرف فيما حولها مضطربة منتفضة ، وأرسلت الخادمة البستاني ليدعو
الطبيب ، نجاء الطبيب ووصف لها علاجاً مهدئاً ولكن والدتي لم تقل شيئاً
حتى له . وأكد البستاني أنه رأى قبل أن يسمع الصرخة رجلاً مجهولاً
ينسل من أدغال الحديقة إلى البوابة في الشارع (كنا نقيم في منزل ذى
طابق واحد وكانت نوافذه مطلة على حديقة واسعة) ولم يجد البستاني وقتاً

كافياً لرؤية وجه الرجل ، ولكنه كان طويلاً ولا بساً قبعة من القش متهدلة
وكسوة طويلة كاملة ، نخطر بفكرى « كسوة البارون » ولم يستطع البستاني
اللاحاق به ، وفضلاً عن ذلك فانه استدعى فى المنزل وأرسل فى دعوة
الطبيب ، فذهبت إلى والدتى ، وكانت مطروحة على الفراش وهى أشد
بياضاً من الوسادة التى أسندت عليها رأسها ، وابتسمت لما رأتنى ابتسامة
واهنة وبسطت إلى يدها فجلست إلى جانبها وشرعت أسأله وكانت ترد
بالنفى على كل شىء ، وأخيراً أقرت بأنها رأت شيئاً ملاًها خوفاً ورعباً ،
فسألتها : هل جاء أحدهنا ؟ فأجابت فى سرعة إنه لم يأت أحد وإن
ما رآته مجرد وهم وخيال ، ثم أمسكت عن الكلام وخبأت وجهها بيديها ،
وكنت أهم بأن أخبرها بما سمعت من البستاني ، وأن أصف لها عرضاً
مقابلتى مع البارون ... ولكن لسبب من الأسباب أبت شفتائى التكلم
وإن كنت قد اجتترأت على أن أبدى لوالدتى ملحوظة أن الأشباح
لا تظهر فى وضح النهار ، فأشارت إلى بالصمت وقالت أرجوك ألا تعذبى
الآن ، وستعرف ذلك يوماً ما ، وعادت إلى الصمت ، وكانت يدها مقلوبة
ونبضها سريعاً غير منتظم ، فناولتها الدواء وابتعدت عنها قليلاً كي
لا أزعجها ، فلم تبرح الفراش طوال اليوم ، وكانت ترقد هادئة ساكنة ومن
الحين إلى الحين تصعد زفرة عميقة وتفتح عينيها فى خوف وجزع ،
وكان كل من فى المنزل فى حيرة لا يدرون

ولما دنا الليل أصابت والدتي حمى خفيفة فأبعدتني عنها ، فلم أذهب إلى غرفتي ، وإنما استلقيت على أريكة في الغرفة التالية ، وكلما انقضى ربع ساعة كنت أقوم وأسير على أخمص قدمي إلى الباب وأسمع ... كان كل شيء ساكناً ولكن والدتي لم يغمض لها جفن تلك الليلة ، ولما عدتها في باكورة الصباح كانت وجفاتها غائرة ، وكان ينبعث من عينيها ضياء غير طبيعي ، وفي أثناء النهار تحسنت قليلا ، ولكن قرب المساء ازدادت الحمى وظلت إلى ذلك الوقت مصرة على الصمت ، ولكنها أخذت بغتة تتكلم بلهجة سريعة متقطعة ، ولم تكن شاردة الفكر ، بل كان في كلماتها معنى ولكن لم يكن بينها اتصال

وعند منتصف الليل نهضت من مرقدتها بحركة عنيفة — وكنت جالسا إلى جانبها — وأخذت في نفس اللهجة السريعة تقص على قصتها ، وهي من وقت لآخر تتناول رشقات من زجاجة بجانبها وتحرك يديها في ضعف وهوادة دون أن تنظر إلى — بل لم يقع بصرها على — أثناء الحديث مرة واحدة — وكانت تتوقف وتحاول أن تملك نفسها وتستأنف القصة ... كانت حالتها غريبة وكأنها كانت تفعل ما تفعل في الحلم أو كأنها كانت غائبة وكأن أحد الناس غيرها يتكلم في شفيتها أو يرغمها على الكلام .

استهلت والدتي قصتها بقولها لى : « اصغ لما سأفضى به إليك فلست الآن صبيّاً صغيراً ، ويلزم أن تعرف كل شيء ، كانت لى صديقة فتاة تزوجت رجلاً أحبته من صميم قلبها ، وكانت جد سعيدة مع زوجها ، وفى خلال السنة الأولى من حياتهما الزوجية سافرا معاً إلى العاصمة ليمضيا أسابيع قليلة هناك فى اللهو والمتعة ، وأقاما بفندق صالح وأكثر من التردد على المسارح والمجتمعات ، وكانت صديقتى حسناء فاسترعى جمالها الأنظار واختلب الباب الشباب — ولكن كان بينهم شاب ضابط يتبعها بلا انقطاع ، كانت ترى عينيه السوداوين القاسيتين أينما تحل ، ولم يقدم إليها الضابط ولم يخاطبها مرة واحدة — وإنما كان ينظر إليها باستمرار نظرات وثقة مقتحمة مفرطة فى الغرابة ، وقد نعص وجوده عليها ملذات العاصمة فأخذت تغرى زوجها بالإسراع فى الرحيل ، وكانا قد أتما الاستعداد له ، فى ذات مساء ذهب زوجها إلى النادى — وكان دعاه إليه ليلعب البوكر ضابط من نفس فرقة ذلك الضابط الآخر ، فتركها منفردة لأول مرة ، وتأخر عن العودة طويلاً ، فصرفت وصيفتها وذهبت للفراش وشعرت فجأة أن الخوف قد استولى عليها وأحست بابتعاد جسمها وأخذتها رعدة وتوهمت أنها سمعت ركزاً مثل نبش الكلب فى الجانب الآخر من الحائط ، فبدأت ترقب الحائط ، وكان فى زاوية من الغرفة مصباح مشتعل ، وكانت الغرفة كلها

مغشاة بالأستار المزركشة ثم تحرك هنالك شيء فجاء وهب قائماً
وبرز من الحائط شبح أسود طويل القامة هو ذلك الرجل المفزع ذو العيون
القاسية الوحشية ! فحاولت أن تصيح مستغيثة فلم تقو على ذلك ، أسرع
إليها الرجل كالوحش الضارى وألقى على رأسها شيئاً قوى الرائحة ثقيلًا
أبيض اللون وما جرى لا أتذكره ! لا أتذكره فقد كان شبيهاً
بالموت أو بالقتل . . . ولما أخذت تنجذب تلك الظلمة الرهيبة . . . ولما عدت
— أقصد لما عادت صديقتى إلى نفسها لم تجد فى الغرفة أحداً ، وبقيت مدة
لا تستطيع الاستغاثة ثم أفقت أخيراً ثم أخذت بعد ذلك
تشتبه عليها الأشياء . . . ثم رأت زوجها إلى جانب فراشها فقد أبقوه فى
النادى إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكان يظهر عليه أنه
مروّع مبيض الوجه ، فشرع يسألها ولكنها لم تخبره بشيء ، وعاوردها الإغماء ،
وأذكر أنها لما خلت بنفسها فى الغرفة تفقدت المكان من الحائط
واتضح لها أن تحت الأستار المزركشة باباً سرياً ، ووجدت خاتم خطوبتها
قد ضاع من يدها ، وكان شكل هذا الخاتم غير عادى ، كانت تتعاقب
عليه سبعة نجوم ذهبية صغيرة وسبعة نجوم أخرى فضية ، وكان من
موروثات الأسرة القديمة ، ولما سألتها زوجها عنه لم تستطع أن تجاوبه ،
فظن زوجها أنه سقط منها فى مكان ما . وبحث عنه فى كل مكان ولكنه
لم يعثر عليه ، فشعر بقلق وهم واعتزم الإسراع فى العودة ، وتركها
العاصمة عندما سمح لها الطبيب ولكن تصور ! فى يوم رحيلها نفسها

اتفق أنهما قابلا بغتة نقالة جرحى محمولة في الشارع وكان في تلك
النقالة رجل قد قتل توأ وشج رأسه وتصور ! كان الرجل هو نفسه
الشبح المفزع الذي ظهر في الليل بعينه الطافحة بالشر وقد قتل في
نزاع على القمار !

ثم ذهبت صديقتي إلى الريف وصارت أمًّا للمرة الأولى
وعاشت سنوات عديدة مع زوجها ولم يعرف شيئاً قط ، وماذا كانت تستطيع
أن تقول له ؟ هي نفسها لم تكن تعرف عن الأمر شيئاً

ولكن سعادتها السابقة ودعتها مولية ، وأخذت سحابة حزن تظلل
حياتهما ، ولم تنقش قط تلك السحابة ، ولم يرزقا أطفالاً قبل هذا الابن
ولا بعده . . . » ثم انتفضت والدتي وخبأت وجهها بين يديها واستمرت
تقول وقد تضاعف نشاطها « ولكن قل الآن هل كانت صديقتي حقيقة
باللوم على أي وجه من الوجوه ؟ وما الذي جنته حتى تعود على نفسها
باللائمة ؟ لقد نزلت بها العقوبة ، ولكن أليس من حقها أن تقول أمام الله
نفسه إن العقوبة التي حلت بها عقوبة ظالمة ؟ فقيم إذن يطالعهما الماضي
بصور مخيفة بعد تصرم سنوات كثيرة كالجرم الذي يخزّه ضميره ؟ لقد قتل
ما كبث بانكو فلا غرابة إذن أن زاره طيفه ولكن أنا . . . »

وهنا اختلطت كلمات والدتي وامتزجت بعضها ببعض حتى توقفت عن
متابعتها . . . ولم أشك في أنها كانت تهذى

ويمكن أى إنسان أن يتصور بسهولة التأثير الشديد المشير الذى ألم
بنفسى بعد سماع ما ألقته على والدتى ، فقد عرفت من كلماتها أنها تتحدث
عن نفسها وتروى قصتها لا قصة صديقة لها

وأكد فى نفسى هذا الظن فلتة لسانها ، فإذن حقيقة كان والدى
هذا الذى كنت أبحث عنه فى حلمى والذى رأيته فى يقظتى فى رائعة
النهار ، ولم يكن قد قتل كما توهمت والدتى وإنما جرح فقط وقد جاء ليراها
ولاذ بالفرار لما أخافه خوفها ، وفهمت بغتة كل شيء الشعور
بالكرهية لى الذى كان ينبعث فى نفسها برغم إرادتها . . وحزنها الدائم
وعيشتنا المنعزلة ، وأتذكر أن رأسى أخذ يدور وأخذت أمسكه بكلمات
يدى لأوقفه عن الدوران ، ولكن فكرة واحدة قيدتني وأقرت رأسى ،
وذلك أنى عقدت النية على أن أجدها هذا الرجل كائنة ما كانت الظروف
والأحوال ! ولكن لماذا ؟ ولأى غرض ؟ لم أستطع أن أردد على نفسى
بجواب واضح — ولكن لقاء هذا الرجل صار عندى مسألة حياة أو موت !
وفى الصباح التالى هدأت والدتى وفارقتها الحى وأخذتها سنة من
النوم فتركبتها فى رعاية الخدم وأهل المنزل وخرجت أبغى مطلبى

فسلكت في بادىء الأمر الطريق المفضى إلى القهوة التى قابلت فيها البارون ولكن لم يعرفه أحد فى القهوة بل لم يلمحه أحد فقد كان زائراً عابراً ، ولما كان شكل الزنجى يستلفت النظر فقد لحظه بعض الناس ولكنهم لم يعرفوا من هو ولا أين يقيم ، وتركت عنوانى فى القهوة ، وطفقت أجوب الطرقات وأجول فى الشوارع المواجهة للبحر التى تظلها الأشجار المغروسة على الجانبين ، وأبحث فى المحلات العامة كلها ولكن لم أستطع أن أجد شبيهاً للبارون ورفيقه ! ولم أكن أعرف لقب البارون ولذا عدت وسيلة عرض الأمر على الشرطة ، ولكنى على أى حال أطلعت ثلاثة أو اثنين منهم على الأمر فنظروا إلى نظرة دهش وتعجب ولم يصدقوا مطلقاً أننى أستطيع مكافأتهم بسخاء إذا أمكنهم أن يقتفوا أثر شخصين وصفت لهما مظاهرها الخارجية بقدر ما يمكننى من الدقة ، وبعد أن سرت على هذه الطريقة إلى وقت الغداء عدت أدراجى متعباً قليلاً ، وكانت والدتى قد استيقظت وقد زاد على حزنها العادى نوع من الذهول الحالم المستغرق ، فحز ذلك فى قلبى كحز السكين ، وقضيت المساء معها ، وتكلمنا قليلاً ، وكانت والدتى قد اعتصمت بالصبر فأخذت أراقب صبرها فى صمت ، ولم تشر إشارة واحدة إلى ما أفضت به إلى فى المساء الماضى ، وكأنا عقدنا اتفاقاً سرياً على أن لا نعرض لهذه الحوادث الغريبة المروعة

وكان يبدو عليها أنها غضبي مع نفسها وأنها نضو حياء لما بدر منها عن غير وعى ، ولو أنها كانت لا تتذكر جيداً ما فاهت به فى حالة غيبوبتها وهى محمومة ، وأملت أنى سأعفيها من ذلك وقد أعفيتها وأغضيت عن الإشارة إلى ما ذكرت ، وشعرت هى بذلك وكانت تتجنب نظراتى مثلاً فعلت فى الليلة الساففة ، ولم أذق النوم تلك الليلة ، وقد ثارت فى الخارج فجأة زوبعة رهيبة فكانت الريح تعول وتعصف عصفاً أهوج فتهز زجاج النوافذ ويرتفع منها رنين واصليل ، وكانت تدوى فى الريح صرخات يائسة وتتصاعد فى جوانبها تأوهات كأنما تتمزق أحشاء شىء فى السموات وكأن هذا الشىء كان يطير فوق المنازل المهتزة المرجوجة وهو يرن ارناناً طائشاً جنونياً ، وقبيل الفجر أخذتنى سنة من النوم وتوهت بغتة أن أحداً من الناس دخل إلى غرفتى ونادانى ونطق باسمى فى صوت خفيض ولكنه معتزم مصمم ، ورفعت رأسى فلم أر أحداً ، ومن العجب العاجب أنى لم أكن إذ ذاك خائفاً فحسب بل كنت مسروراً مغتبطاً ، وشعرت بغتة شعوراً كاملاً بأنى سأبلغ قصدى ، فارتديت ملابسى مسرعاً وخرجت من المنزل

(١٢)

هدأت العاصفة ... ولكن آثار ثورتها وصراعتها كانت بادية محسوسة ، وكنت مبكراً جداً فوجدت الشوارع مقفرة من الناس ، وكانت أماكن كثيرة ملأى بالآجر والمدخن المكسورة وقطع الحواجز الغارقة وفروع

الأشجار ، ولما شاهدت آثار تلك الزوبعة قلت في نفسي من الدهشة
ليت شعري ماذا كانت تشبه تلك الليلة الأخيرة في البحر ؟ وقصدت الميناء
ولكن رجلى حملتني في ناحية أخرى كأنها كانت تطيع قوة جاذبية
لا تغالب ، ولم تمر عشر دقائق على ذلك حتى وجدت نفسي في ناحية من
المدينة لم أكن زرتها من قبل وكنت أمشي الهويناء ولكن بغير توقف ،
وكان يخالجنى إحساس غريب ، كنت أنتظر رؤية شيء خارج عن
المألوف ، شيء غير ممكن وكنت في نفس الوقت واثقاً بأن هذا الشيء
غير المعتاد سيأتي بلا ريب

(١٣)

وتأمل فقد شاء القضاء أن يحدث ذلك الشيء الخارق للعادة ، هذا
الشيء غير المنتظر ! فجأةً وعلى بعد عشرين خطوة مني رأيت نفس
الزنجي الذي تحدث مع البارون في القهوة وهو ملتف بذات العباءة التي
شاهدته بها هناك ، وخيل إلي أنه برز من بطن الأرض ، ثم أعارني ظهره
وسار بخطوات سريعة على الرصيف الضيق في الشارع المنعرج فانطلقت
وراءه أبغى اللحاق به ، ولكنه ضاعف خطواته دون أن ينظر حوله ودار
بحدة وعلى غير انتظار حول ركن منزل بارز ، فأسرعت إلى ذلك الركن
ودرت حوله بالسرعة التي دار بها الزنجي . . . ويا لغرابة ما سأرويه !
واجهت شارعاً طويلاً ضيقاً خالياً خلواً تماماً وقد ملأه ضباب الصباح بكموده

القائم ، ولكن عيني نفذتا إلى أقصى آخره ، واستطعت أن أنعم النظر في
مساكنه كلها . . . فلم أسمع حركة مخلوق حي به ! واختفى الزنجي بغتة كما
ظهر بغتة ! فخرت في أمري ولكن ذلك لم يستغرق سوى لحظة ، وتملكني
شعور آخر في الحال فعرفت الشارع الساكن سكوت الموتى الممتد أمام عيني !
كان هو الشارع الذي أريته في الحلم ، فشخصت ببصري وانتفت ، وكان
الصباح نضيراً ، ثم تقدمت على الفور دون أدنى تردد وقد أملت بي رعدة
يقين وتأكد !

أخذت أنظر حولي . . هنا كان المنزل ، هنا في ناحية اليمين كان المنزل
الذي أريته في الحلم مواجهاً بركنه الشارع . وهنا أيضاً كانت البوابة
العتيقة الطراز وعلى جانبيها حروف وزخرفة بالأحجار . . . وحقيقة أن
نوافذ المنزل لم تكن مستديرة وإنما كانت قائمة الزوايا . . . ولكن هذا
ليس مهماً . . . وطرقت الباب ، طرقت الباب مرتين أو ثلاث مرات
متدرجة في الارتفاع . . . ففتحت البوابة على مهل وقد صعدت منها أنه
كأنها كانت تتشاءب ، واستقبلتني خادمة صغيرة شعشاء الشعر ناعسة العين ،
وكان يظهر أنها استيقظت تواء ، فسألتها : « هل يقيم البارون هنا ؟ »
وألقيت نظرة عجلى على صحن الدار الضيق العميق . . . وكان هناك كل
شيء . . . كانت هناك كتل الخشب والحديد التي رأيتها في الحلم
فأجابت الخادمة « لا ، البارون ليس مقيماً هنا »

— لا ! مستحيل !

— ليس هو الآن هنا ، لقد ترك المنزل بالأمس

— أين ذهب ؟

— إلى أمريكا

فأعدت قولها « أمريكا » على غير رغبة مني

— ولكن هل يعود ثانية ؟

فنظرت إلى الخادمة نظرة المشتبه

— لا نعرف شيئاً عن ذلك فقد لا يعود مطلقاً

— وهل أقام هنا طويلاً

— لم يقيم هنا طويلاً ، مدة أسبوع فقط ، وليس هو الآن هنا

— وماذا كان لقب البارون ؟

فحملت في الفتاة

— أنت لا تدري اسمه ؟ لقد كنا ندعوه بالبارون

ولما رأته أحاول الدخول صاحت « يا بيوتر ! بالبواب رجل غريب
يكثّر من الأسئلة »

فجاء من المنزل رجل عامل قوى الأسر كرهه الحيا

فسألني بلهجة بليدة « ماذا ؟ ما الذي تريده ؟ ولما سمع ما قلته وهو

عابس الوجه أعاد على سمعي ما قالته الفتاة

فسألته « ولكن من المقيم هنا ؟ »

— المقيم هنا رئيسنا

— ومن هو

— نجار ، وكل من فى هذا الشارع نجارون »

— وهل أستطيع أن أراه ؟

— لا يمكنك أن تراه الآن لأنه نائم »

— ولكن هل أستطيع أن أدخل المنزل

— لا — اذهب إلى حال سبيلك

— ولكن هل أستطيع أن أرى سيدك مرة أخرى ؟

— ولماذا بالطبع تستطيع ... يمكنك أن تراه على الدوام وأؤكد لك

أنه يقضى أوقاته هنا مكبا على عمله ، ولكن اذهب الآن ، وهل يأتى

أحد للزيارة فى مثل هذا الوقت من الصباح ؟

ثم سألته بغتة ولكن الزنجى !

فنظر إلى مرتبكا ثم نظر إلى الفتاة

ثم قال أخيراً « أى زنجى انصرف يا سيدى ، تستطيع أن تجىء فى

وقت آخر ، يمكنك أن تخاطب رئيسنا »

فخرجت إلى الشارع ، فأقفلت البوابة ورأتى بقوة وحدة دون أن يرتفع

منها أنين فى هذه المرة

فلاحظت الشارع والمنزل وانصرفت ، ولكنى لم أعد إلى المنزل ...

كنت أشعر بتقشع وهمى وخيبة أمل ، وكان كل ما حدث غريباً وغير

منتظر وفى الوقت نفسه أى نتيجة سخيفة ! كنت قد ألقى فى روعى أنى

سأرى فى المنزل الغرفة التى أعرفها وفى وسطها والدى البارون فى رداء النوم

وفى فمه الغليون . . . فإذا برز المنزل نجار أستطيع أن أراه حين أشاء . . .
وأستطيع أن آمره بصنع أثاث

ذهب والدى إلى أمريكا فماذا أصنع ؟ أفضى إلى والدتى بكل شىء
أو أطوى ذكراه فى قبر النسيان ؟

ولم أستطع أن أستسلم لفكرة أن قوة غريبة تنتهى هذه النهاية الفارغة
من المعنى !

ولم أحاول الرجوع إلى المنزل وسرت على غير قصد بعيداً عن المدينة

(١٤)

سرت منكس الرأس عاكفاً على نفسى ولا فكر ولا إحساس إلى أن
أهاب بى من خمود الحس وخدره صوت مولول متردد غاضب ، فرفعت
رأسى فإذا بالبحر يهدر ويزخر على قيد عشرين خطوة منى ، ورأيتنى أسير
على رمال التلال المشرفة على البحر ، وكان البحر قد احتاجته الزوبعة فعلاه
الزبد وامتد فوقه إلى صميم الأفق ، وكانت غوارب الأمواج الطويلة الحادة
تتوالى متتابعة وتتكرر على الشاطئ المنبسط ، فاقتربت منه وسرت على
الخط الذى تركه جزر البحر ومدته على الرمل الأصفر المنساب الممتلىء بقطع
منشورة من قش البحر ومكسور الأصداف والحشائش ، وكانت أسراب
من طير النورس تطير بارزة الأجنحة فى الرياح مقبلة من أقصى أعماق الهواء ،
وكان ينبعث منها صوت المستصرخ الشاكي ، وكانت تحلق فى السماء الغائمة

المقلّبة وهى فى بياض الثلج ثم تسقط فجاءة فتظهر كأنها تثب من موجة إلى موجة ثم تختفى ثانية ويغيب أثرها مثل ومضات الفضة فى أجواف الموج المزبد ، وقد لاحظت أن الكثير منها يحلق باستمرار فوق صخرة كانت واقفة منفردة فى وسط الشاطئ الرملى المطرد الاستواء ، وكانت تنمو على أحد جوانب تلك الصخرة أعشاب بحرية كثيفة فى نظام غير مطرد ، وأبصرت شيئاً أسود مستطيلاً مقوساً غير معتدل الحجم حيث كانت تتصاعد الأعشاب الملتفة حول الخط الأصفر . . . فنظرت إليه فاحصاً مدققاً . . . كان هناك شئ أسود ملقى بلا حراك إلى جانب الصخرة . . . أخذت تنجلي عنه أسداف الخفاء ويظهر واضحاً كلما دانيته

كنت على قيد ثلاثين خطوة فقط من الصخرة . . . وكان ما رأيته صورة بشر! كانت رمة ، كان رجلاً غريقاً قذف به البحر ! فذهبت إلى الصخرة

كانت الجثة جثة البارون والدى ! فوقفت وكأنى قد استحلت حجراً ، وهناك تأكدت واستيقنت أن قوى مجهولة ساقتنى من الصباح ، وأننى كنت فى قبضتها وطوع مشيئتها ، ومرت بى دقائق لم يكن فى نفسى سوى هدير البحر وفزع صامت أبكم من رهبة القضاء الذى تملك نفسى وتصرف بأعنتها

كان منظر حراً على ظهره مائلاً قليلاً إلى أحد شقيه ، وساعده الأيسر خلف رأسه ، وساعده الأيمن ممدوداً تحت جسمه المنحني ، وكانت أصابع قدمه — وهى فى حذاء ملاح طويل — قد التصقت بوحل البحر ، وكانت حلتته الزرقاء القصيرة مبتلة من مياه البحر ولكنها كانت محكمة الأزرار . وكان فى عنقه رباط رقبة أحمر اللون ، وكان وجهه الأسود وهو متجه نحو الشمس يُرى كالضحك ، وكان يمكن أن تنظر الأسنان الصغيرة المتقاربة تحت الشفة العليا المرفوعة ، وكنت لا تكاد ترى إنسان عينه الغامض فى تلك الأحداق المتراخية المسودة المحاجر ، وكان شعره المتجعد وقد علتته رغوات الزبد متهدلاً على الأرض مشوشاً أشعث فتعرى جبينه الأملس وظهر فيه أثر للجرح بلونه الأحمر الأرجوانى ، وبرز أنفه الضامر كخط أبيض مرهف بين وجنتيه الغائرتين ، وكانت عاصفة الليلة الساففة قد فعلت الأفاعيل ... فسوف لا يرى أمريكاً مرة ثانية ! الرجل الذى دنس شرف والدتى وأفسد حياتها ولوثها — والذى — نعم ! والذى — ولا أستطيع أن أشعر بشك فى ذلك — كان ملقى فى الطين عند أقدامى ، وخالجتنى إحساسات متغايرة من تشف ورحمة وكرهية وفزع أشد من الجميع ... فزع مضاعف وخوف مما شاهدت ومما وقع من الحوادث ، وتكشفت فى نفسى المشاعر الجارمة الشريرة التى تحدثت عنها ، مشاعر الغضب التى

كنت أجهل بواعثها . . . وأفزعتنى فقلت فى نفسى « آه » هذا هو السبب
فى تلك الحالة التى تغشائى وهكذا ينم دى على نفسه ، ووقفت إلى جانب
الجثة أحملق واجماً ، ألا تتحرك هاتان العينان المبيتان ! ألا ترتجف هذه
الشفاه اليابسة ؟ كلا ! كل شىء خامد لا حراك به ، حتى أعشاب البحر
كأنها مسلوقة الحياة حيث قذفها أمواج البحر ، وحتى النوارس طارت ،
فلا تقع العين على سارية مكسورة ولا شظية من الخشب ولا بقية من
أمراس السفن ، فراغ فى كل ناحية . . . هو وأنا وحدنا وعلى بعد يدوى
الخضم ، ونظرت ورأى فإذا الفراغ نفسه وكان تلوح فى الأفق أطراف
الشاطئ ، الرملى المنبسطة المقفرة من الحياة . . . وكان هذا كل ما هنالك !
وعز على أن أترك هذا الشقى النكد الحظ فى هذا انخلاء الموحش على رمال
البحر المالحة لتنهشه الأسماك وكواسر الطير ، وأهاب بى هاتف داخلى أن
عليك بالبحث عن الناس إن لم يكن للمساعدة — وأى مساعدة ترجى
الآن — فعلى الأقل لينتشلوه ويحملوه إلى مسكن من المساكن المعمورة ،
ولكن خوفاً لا يوصف استولى على ، وبدا لى أن هذا الرجل الميت قد علم
بمجيئى هنا ، وأنه هو نفسه قد هياً هذا اللقاء الأخير . . . بل توهمت أنى
سمعت التمتمة الخفية التى كنت أعرفها من لوازمه . . . ولج بى الفرار
فعدوت . . . ونظرت خلفى مرة واحدة . . . فاجتذب نظرى شىء يلتصق
فتوقفت عن الجرى ، وإذا به خاتم من الذهب فى يد الجثة . . . خاتم
خطبة والدتى ، ولا أزال أذكر كيف أرغمت نفسى على العودة والاقتراب

من الجنة والانحناء أمامها وأتذكر كيف لمست الأصابع المبتلة المقرورة
وكيف حبست أنفاسي وأرخيت أجفاني وأعملت أسناني في انتزاع
الخاتم المتأبى

وأخير انتزعت الخاتم وانطلقت أسبق الريح ، وكان يطير ورأى
شيء على أعقابى ويلحق بى

(١٦)

وكان كل ما قاسيته مسطوراً على وجهى لما بلغت المنزل ، ووقفت
والدتي بغتة عند دخولى إلى غرفتها ؛ ونظرت إلى نظرة استفسار ملح ،
وحاولت أن أبين لها جلية الأمر فلم أوفق ، وفي النهاية ناولتها الخاتم في صمت
فابيض لونها بياضاً مخيفاً وحملت عيناها أكثر من المألوف وبدأت عليها
مظاهر الموتى « مثل هاتين العينين » وأرسلت صيحة واهية ، واختطفت
الخاتم وأصابها دوار وارتمت على صدرى وغابت عن صوابها ، ومال رأسها
إلى الخلف وشخصت إلى عيناها الواسعتان الحائرتان ، فطوقتها بساعدى
وأخبرتها وأنا ثابت في مكاني في هوادة وبصوت خفيض بكل شيء ،
ولم أخف عنها صغيرة ولا كبيرة ، فذكرت لها حلمى ولقائى لوالدى وكل
شيء بنصه وفصه وأرعتنى سمعها إلى النهاية دون أن تنطق بكلمة
واحدة ، وكان صدرها يتصاعد ويضطرب اضطراباً ، وأومضت عيناها فجأة
وغارتا ، ثم وضعت الخاتم في أصبعها الوسطى وابتعدت قليلا تستحضر

قبعها وترتدى معطفها فسألتها : إلى أين تريد الذهاب ، فنظرت إلى بعينين
ملؤها الدهشة والذهول وحاولت أن ترد على سؤالى نخافها صوته وانتفضت
مرات عدة وفركت يديها كأنها كانت تحاول ادفاءهما ، وقالت لى أخيراً
« لنذهب إلى هنالك توأ »

« إلى أين يا والدتى ؟ »

« حيث يرقد . . . أريد أن أرى . . . أريد أن أعرف . . . لا بد
أن أعرف . . . وحاولت أن أثنى عزمها عن الذهاب ولكنها كأنما أخذتها
نوبة عصبية ، ورأيت أنه من المستحيل مقاومة رغبةها ، فخرجنا معاً »

(١٧)

والآن كنت أعاود السير على الرمال ولكنى لم أكن فى هذه المرة منفرداً ،
كنت متأبطاً ذراع والدتى ، وكانت موجة المد قد انحسرت وظلت
تراجع ، وكان البحر أهداً ولكن هديره — ولو أنه كان أخفت صوتاً —
كان لا يزال مهدداً منذراً سىء السريرة ، ولاحت لناظرينا الصخرة
المهجورة ، ورأينا الأعشاب البحرية فأخذت أرسل الطرف عامداً وجهدت
فى استيضاح الشئ المقوس الملقى على الأرض ، ولكن لم أبصر شيئاً ،
فاقتربنا ، وراخيت خطواتى بباعث غريزى ، ولكن أين كان الشئ ،
الأسود المستقر بلا حراك ؟ لم يكن ثمة إلا أعشاب أثينة ملتفة سود
اللون بادية فى الرمل الذى أخذ يجف ، وذهبنا رأساً إلى الصخرة . . .

لم نر هناك جثة ، ولم نجد سوى التجوية حيث كانت الجثة ملقاة ، وكنت ترى أثر الساعد والساق في الرمل ، وكأنا كانت الأعشاب حولها مدوسة مسحوقة وقد ظهرت آثار أقدام ، وقد مرت تلك الأقدام على كثيب الرمل المشرف على البحر ثم غابت آثارها في الحصى المتراكم ، فنظر كل منا إلى الآخر ، وهالنا ما أبصره كل منا في عين صاحبه

يقيناً أنه لم يبق بنفسه ويذهب لسبيله ؟
ثم سألتني والدتي هامسة « هل أنت متأكد من أنك أبصرته ميتاً ؟
فلم أستطع إلا أن أومئ برأى موافقاً ، ولم يكن قد مر سوى ثلاث ساعات على عشوري على جثة البارون بعض الناس قد وجدها ونقلها . . . لا بد أن أعرف من قام بذلك وماذا آل إليه أمرها ، ولكن على أول الأمر أن أنظر في شأن والدتي

(١٨)

كانت وهي تسير نحو المكان المشؤوم محمولة ، ولكنها تمالكت نفسها ، وجاء اختفاء الجثة ضربة قاضية عليها ، فانعقد لسانها ، وأشفقت على عقلها وأوصلتها إلى البيت بصعوبة ، وأرقدتها ثانية في الفراش وأرسلت مرة أخرى أدعو الطبيب ، ولكن عند ما أفاق قليلاً طلبت إلى أن أخرج في التو واللحظة من غير إبطاء لأبحث عن « ذلك الرجل » فأذعنت للأمر ، ولكن بالرغم من كل محاولة ممكنة لم أعثر على شيء ، وذهبت

مرات عدة إلى مراكز الشرطة وزرت قرى مختلفة في الجهة المجاورة وأعلنت في الجرائد وتنسبت الأخبار في كل ناحية بغير جدوى ، وعلمت حقاً أنه قد انتشلت جثة غريق في إحدى قرى الساحل قرب فأسرعت إلى تلك الجهة ولكن لم أتبين من كل ما سمعته أن تلك الجثة تشبه البارون ، وعرفت السفينة التي أبحرت به إلى أمريكا ، وأجمع الناس في بادئ الأمر على أن السفينة غرقت في العاصفة ، ولكن شاع بعد أشهر قلائل أنها شوهدت راسية في ميناء نيويورك ، ولما كنت لا أعرف لى خطة أتبعها بدأت بالبحث عن الزنجى الذى كنت رأيته وعرضت عليه في الجرائد مالا طائلاً اذا زارنا فى المنزل — وقد زارنا فعلاً زنجى طويل القامة وأنا غائب لكن بعد ما سأل الخادم اختفى بغتة ولم يعد بعد ذلك

وهكذا اندثرت معالم والدى واختفت آثاره ، وتلاشى فى الصمت والظلام ولن يؤوب حتى يؤوب القارطان ، وأمسكنا عن ذكره أنا ووالدتي إلا أنها أظهرت لى يوماً استغرابها لأنى لم أقص عليها حلمى الغريب من قبل ، وزادت على قولها « لا بد أن ذلك يعنى » ولكنها لم تقصص عن فكرتها ولم تبج بما خالجه ، وظلت مريضة مدة طويلة ، وحتى بعد شفائها لم تعد علاقتنا المتينة السابقة كما كانت ، كانت لا تطمئن إلى حتى يوم وفاتها ، وكانت السامة حالتها الملازمة وهى داء لا دواء له ، وقد يهون وقع كل شئ وتفقد الذكريات المنزلية الأليمة شدتها ومرارتها ، ولكن الشعور بعدم الاطمئنان والثقة إذ تسلل إلى قلب شخصين قد توثقت بينهما الروابط

فليس من اليسور بعد ذلك الخلاص منه ، ولم يعاودنى بعد ذلك الحلم
الذى أزعجنى حيناً من الدهر أشد الازعاج ، ولم أعد أفكر فى والدى ،
ولكن كنت — ولا أزال — أتوهم فى بعض الأوقات أنى أسمع صرخات
بعيدة وأنات حزينة وكأنها كانت لا ينقطع لها صوت ، وكانت تتراءى لى
كأنها مقبلة من وراء حائط عال لا يمكن اختراقه ، فينفطر لها قلبي وأبكي
وعيناي مقفلتان ولا أستطيع أن أدري ما أنا فيه ، وهل هناك إنسان يثن
وينتحب ! أو أنا أصغى إلى ولولة البحر الهائج المستوحشة المتصاعدة من
أعمق أغواره ثم تستحيل صوتاً يشبه زجرة بعض الوحوش
ويغلبنى النعاس فأنام وقد ملأ قلبي الألم والرعب .



أكبرت الأشقر الشعر

للكاتب الألماني لدويج نيك [١٧٧٣ — ١٨٥٣]

كان أحد الفرسان يقيم في ناحية من جبال الهارز ، واشتهر هناك باسم
أكبرت الأشقر الشعر ، وكان معتدل القامة يربى على الأربعين ، وحول
وجهه الشاحب الغائر خصائل من الشعر قصيرة مشرقة اللون ، وكان يعيش
عيشة انفراد وعزلة ، ويتحاشى جيرانه فلا يندس فيما يشجر بينهم من
الخلاف ، وكان قليلاً ما يرى خارج أسوار قلعته ، وكانت زوجته مثله تؤثر
العزلة ، وقد تعاهد قلبهما على الحب والصفاء ، وإن كانا يشكوان من الحين
إلى الحين لأن الله لم يبارك زواجهما بالخلف

وكان زوار أكبرت قليلين ، وكان حضورهم لا يغير من أسلوب حياته ،
وكان الاعتدال والاقتصاد باديين في أركان منزله ، وكنت تراه عند
حضور الأضياف ريح البال جم البشاشة ، ولكنك تلحظ فيه عند تفرده
تماسكاً واحتجازاً صامتاً وديعاً ، وتطالع من نفسه آيات حزن دخیل يغرى
بالإخلاق إلى السكون والعزلة

وكان فيليب ولتر هو الزائر الذى لا ينقطع عنه ، وهو رجل ربطته
بأكبرت شوابك صداقة متينة لتشابههما في مناحى التفكير ، وكان ولتر

يقيم في فرانكونيا ، ولكنه تعود أن يمكث أكثر من نصف العام على
مقربة من أكبرت حيث يجمع النباتات ويبحث عن المعادن ثم يجمعها
وينسقيها ، وكان يعيش من ريع قليل ، ولا يمت بصلة إلى أحد

واعتاد أكبرت أن يستصعبه في مشياته المنفردة ، وتصرم عام فعام
والصدقة بينهما تزداد على تقادم العهد رونق جدة ، وقد تمر بالإنسان
ساعات يخامر قلبه الحزن لأنه يحمل في نفسه سرّاً مكتوماً عن صديقه
ويضن به ضنانه البخيل ، وهناك دافع لا مرد لقضائه على قلوبنا يطالبها
بأن تبوح بأسرارها العميقة ودخائلها الدفينة للصديق ، إذ بذلك تزداد
الصدقة متانة ودواماً وفي أمثال تلك الساعات ترفع الأرواح الرقيقة عن
نفسها الحجاب وتقف وجهاً لوجه ، ويحدث في بعض الأحيان أن واحدة
منها تتراجع إلى الوراء وقد تملكها الذعر من الأخرى

وفي أواخر الخريف في مساء متراكب الدجن كان أكبرت جالساً مع
صديقه وزوجته برتا في قاعة الاستقبال إلى جانب الموقد ، وكان اللهب
يلقي لآلاً أحمر في القاعة فيبدو متلاعباً في سقوفها ، وكنت ترى الليل من
خلال النوافذ عبوس الوجه وللأشجار في الخارج حفيف يسرى في القر
الماطر البليل ، فشكا ولتر طول الطريق الذي سيطويه عند عودته ، فعرض
عليه أكبرت أن يقيم حيث هو ، وأن يمضيا هزيعاً من الليل في حديث
رقيق ، وأن ينام الليلة حتى الصباح في قلعته ، فرضى ولتر ، وأمر أكبرت

فأحضرت المائدة والنبيد وطعام العشاء وأتى بوقود الموقد وأخذ الحديث
يزداد شجوناً ويفيض مسترسلاً

ولما رفعت المائدة وانصرف الخدم أخذاً كبرت يد صديقه وقال له
« دع زوجي تحدثك عن شبابها وهو تاريخ غريب وينبغي أن تعرفه »
فقال ولتر « إني أود ذلك من كل جوارحي » واقتربت الجماعة من
الموقد ، وقد مضى موهن من الليل ، وكان القمر يرسل نوره من وراء
تفاريق السحب ثم يحتجب

قالت السيدة « لا يجب أن تظنني ثرارة ، فإن زوجي يصفك برحمان
العقل ، وليس من الأصالة من ناحيتنا أن نخبيء عنك سرّاً ، ولكن
لا تظنني أقص عليك خرافة مهما كانت القصة التي سأرويها لك
غريبة مستبعدة

« ولدت في قرية صغيرة ، وكان والدي راعياً متخلف الحال ، ولم تكن
حياتنا لينة الجوانب ، وكنا نجلب قوتنا اليومي بشق النفس ، وكانت
المشاحنات الكثيرة الوقوع بين والدي ووالدتي تزيدني حزناً على حزن ، ولم
أكن أسمع عن نفسي إلا ما يسوءني ، ولقد كانا دائماً يقولان إني طفلة
خمولة مكسال عاجزة عن القيام بأبسط الأعمال ، والحقيقة التي لا أخفيها
أنني كنت بمكان من البلادة ، بل كنت غير مرجوة ، وكانت
الأشياء تغلت من يدي وتسقط ، ولم أتعلم التطريز ولا الغزل ، ولم يستفد
مني والداي ، وكنت أفهم تمام الفهم ما هما فيه من الضيق والعوز ، وكثيراً

ما كنت أجلس في أحد أركان المنزل وأفعم قلبي الصغير بالأحلام ، وكيف
 يمكنني أن أنهض بهما لو صرت يوماً ما غنية متمولة فأغدق عليهما النعمة
 تلو النعمة وأغمرها بالفضة والذهب ، وطالما لذ لي أن أصور لنفسي الدهشة
 التي تعروها من ذلك ، وكانت تتوافد على نفسي الأرواح وتريني السكنوز
 المدفونة أو تمنحني الحصى الصغير الذي يستحيل أحجاراً ثمينة ، وخشية
 الإسهاب أقول إن أوهاماً غريبة تعجز عن وصفها الألفاظ كانت تأخذ
 بأزمة نفسي ، وكنت عند ما أنهض لقضاء حاجة من حوائج المنزل تتجلى
 بلادتي في أوضح أشكالها لما كان يترقص في رأسي من شياطين تلك
 الأفكار ، وكان والدي شديد الوطأة على دائم التوبيخ لي ولا يراني إلا
 حملاً ثقيلاً على كاهل المنزل ، ولا أذكر إلا نادراً أني سمعت منه كلمة تسر
 خاطري ، وبقيت على تلك الحالة حتى منتصف السنة الثامنة من عمري ،
 وكان من الضروري اللازم حينذاك أن أكون قد أتقنت عملاً أو وعيت
 شيئاً ، وكان والدي يقول إن سبب كسلي لوثة بعقلي أو رغبة في أن أمضي
 أيامي في الكسل والبطالة ، وكان يصب عليّ جام غضبه ، ولما رأى أن هذا
 لم يقوم مني تمادي في الشدة ، ففي بعض الأيام أدبني تأديباً لم تأخذه فيه
 الرأفة فقد كان آية في النكر والشدة ، وأكد لي أنه سيوالى شدته ما لم
 أطرح الكسل ، وقد رقدت تلك الليلة باكية العين خائفة وشعرت بأنني
 مهجورة منبوذة من كل الناس ، وبلغ من رثائي لحالي أني نزلت إلى
 الموت وسئمت الحياة ، وكنت أخشى إقبال الصباح ولا أعرف ما أفعل

ولا ما أنتوى فعله ، ولسم وددت من صميم نفسى أن أصير نشيطة مجتهدة ،
ولم أفهم لماذا أنا أشد أطفال الناحية بلادة وأكثرهم خمولا ، وكنت
مشغية على حدود اليأس وانقطاع الرجاء .

واستيقظت من رقدتى والشمس فى حجر أمها ، ولم أكن أدري
ما أصنع ، وأغلقت باب الكوخ وخطوت إلى الحقل الفسيح ، وأفضى
بى السير إلى الغابة ، ولم تكن أنوار الصباح قد ملأت الآفاق بعد ، وطويت
مسافات طويلة جرياً على القدم غير ملتفتة إلى ما حولى ، ولم أكن أشعر
بتعب ولا إجهاد ، وكنت لا أزال يداخلى الظن بأن والدى قد يقتنى
أثرى ويلحق بى فإذا لقينى ضربنى ضرباً مبرحاً لفرط غضبه منى .

ولما دانيت آخر الغابة ، وكانت الشمس قد علت فى الأفق رأيت شيئاً
أسود الإهاب جاثماً حيال ناظرى ، ورأيت ضباباً كثيفاً نحياً فوقه ، وأخذ
الطريق يتدرج فى الارتفاع قبل ذلك بقليل ، فكنت تارة أرتقى الهضبات
والتلال ، وطوراً أنطلق فوق الصخور ، ولما شعرت بأنى قاربت الجبال المجاورة
أخذت تصرخ فى نفسى الوسوس وتثور بها الهواجس ، وكانت فكرة
الاقتراب من الجبل وحدها تملأ نفسى بالخوف إذ كنت أعيش فى أرض
سهلية ولم أشاهد فى حياتى تلا ، وكانت لفظة تل وحدها كافية لتوقع فى
قلبى الرعب والخوف ، ولم أملك من الشجاعة ما يكفى لإغرائى بأن أعود
أدراجى ، ولقد حثنى الخوف نفسه على التقدم ، وكنت أكاد أقضى نحبى
من الخوف كلما أدت الطرف حولى وقد روعتني النسائم الهافية وهى

توسوس في الأشجار ، وكلما سمعت وقع المعاول في هدأة الصباح ، ولما قابلت في الطريق عمال المناجم وسمعت لهجتهم الغريبة كدت أفقد صوابي من الذعر .

ومررت بجملة قري ، وكنت أتسول في الطريق ، ولم برحت بي آلام السغب وغلة الظما ، وكنت أتصنع أجوبة مختلفة عند ما أسأل عن أمري ، وسرت على هذا النمط مدة أربعة أيام وانتهى بي السير في خاتمها إلى طريق آخر بعيد عن الطريق الذي بدأت منه رحلتي ، وقد بدأت الصخور حولي تأخذ شكلا مختلفاً ومظهراً غريباً ، فقد كانت صخوراً شاهقات مرتكز بعضها فوق بعض ، وخيل إلى أن أول عصفة من عصف الريح ستميل بها إلى أحد جنبها ، ولم أدر أأتقدم أم أتاخر ، وكنت أنام الليل في الغابات — إذا كان الفصل أجمل فصول السنة — أو في أكواخ الصيادين ، ولكن لم أر هناك مسكناً بشرياً ، بل اختفى من نفسى الأمل في العثور على منزل في هذه البرية ، وأخذت الصخور تزداد في عيني وحشة ، وكنت أنسل من فوق أطراف الهاويات السحيقة ، وأخذت آثار أقدامى تضعف وتخفى حتى لم يبق منها أثر في النهاية ، وأصبحت مسلوقة العزاء موجعة القلب فبكيت وأعولت ، وكان صدى صوتي يجاوبني من الودى الصخرية فازداد خوفاً ، وأقبل الليل وتدجى الظلام فبحثت عن ركن أمين معشوشب ألوذ به وأرقد فيه ، ولم أذق النوم وسمعت في سواد الليل أغرب الأصوات وظننتها صادرة من ضواري الوحوش أو منبعثة

عن الرياح الحسرى اللائذة بأطراف الجلاميد أو مقبلة من طيور مجهولة
أجنها الظلام ، وكم دعوت وابتهلت ولم أنم إلا قرب مطلع الفجر .

ولما ارتمى الضوء على وجهى انتهت من رقادى ، ورأيت أمامى صخرة
صماء شماء فعلوتها وبى أمل أن أكشف لى مخرجا من هذه العزلة المكدقة بى
أو أن أبصر مسكنا أو أرى بشرا ، ولكن لما بلغت قمته لم أبصر شيئا من
ذلك ، وكان أقصى ما وقع عليه بصرى فضاء موحش من الصخور
والأجراف الشاهقة وقد تلفعها ضباب قاتم وكان النهار غيمان عبوسا ،
ولم أر شجرة ولا مرعى ولا دغلا ، ولم يكن هناك سوى بعض شجيرات
ممتعة النمو منفردة نابتة فى شقوق الصخور ، وإنى لعاجزة عن وصف ما ألم
بنفسى من النزوع الشديد والشوق القوى إلى رؤية أحد بنى الإنسان وإن
كنت أخشى شره ولا أطمئن إليه ، وبرح بى السغب ويئست من
النجاة وجلست أنتظر الموت ، ولكن رجح بى بعد ذلك الميل إلى حب
الحياة فنهضت وطفقت أجوب نواحي تلك العزلة والدموع تنهمل من عيني
وقد توالى تنهداتى وأمعنت فى الجوبان حتى فقدت السيطرة على نفسى
وصرت أجهل ما أفعل ، وكلت قوتى ونفدت طاقتى وكدت أفقد الرغبة
فى الحياة ولكنى مع ذلك كنت أخشى الموت .

ولما تدانى الليل أخذت الناحية تبدو لى أرفق وأرغد ، وأخذت
تنتش أفكارى ورغباتى وحل الأمن فى نفسى محل الوحشة وتجددت
فى نفسى الرغبة فى الحياة ، وخيل إلى أنى أسمع دوى طاحون على كشب

منى ، فضاعفت خطواتى ، ولا نسل عما غمرنى من الفرح عند ما رأيت
الغابات والحقول منبسطة أمامى والتلال المكسوة بالخضرة ، وشعرت بأنى
فررت من الجحيم إلى الجنة الخضراء الوارفة الظلال ، وصرت لا أرهب
الوحدة ولا أخشى اليأس .

ولم أجد الطاحونة التى توهمتها ، وصادفت منحدر مياه فقلل ذلك من
سرورى وحاولت أن أتجرع جرعات من مائه براحة يدى فسمعت أثناء
ذلك سعالا خفيفا قريبا منى ، ففاض فى نفسى سرور مشوب بالتعجب
لم أعهد فى حياتى مثله ، وأسرعت إلى ناحية الصوت فرأيت فى حافة الغابة
عجوزا جالسة على الأرض ومتشحة بملابس سود ، وقد سترت رأسها
وأكثر وجهها بقبعة سوداء ، ورأيت فى يدها عكازا فاقتربت منها وسألتها
المعونة ، فأومأت إلى بالجلوس إلى جانبها ، وقدمت لى خبزا وقليلًا من
النبيذ ، وكانت تغنى أثناء تناولى الطعام بصوت مرتفع بعض الأنشيد
الروحىة ، ولما أتمتها طلبت إلى أن أتبعها ، فانتفضت نفسى سرورا بهذا
الطلب على الرغم من غرابة منظر العجوز الشمطاء وغرابة صوتها ، وكانت
تثب ومعها عكازها بسرعة وخفة ، وفى كل خطوة تضمر وجهها وتغصنه
حتى كدت أضحك منها ، وابتعدنا عن الصخور المتأبدات شيئا فشيئا ،
وإن أنس لا أنس رؤية المساء المقبل وما نبه فى نفسى من المشاعر فقد كانت
الأشياء جميعها كأنها قد صهرت وتحللت إلى لون أحمر لجينى مفرط الرقة ،
وكانت الأشجار الفارعة قد توج قممها وهج الغروب ورفرف على الحقول

نور مشعشع ، وكانت الغابات وأوراق الأشجار ساجية مسلوقة الحركة ،
وبدت السماء الصافية الزرقاء كأنها جنة مفتوحة الأبواب ، ورن خرير
الجداول وحفيف الأشجار في الصمت السائد على الطبيعة ، فأخذت
تضطرب في نفسى الخواطر وتختلج الأفكار وأطلت التأمل في الدنيا
وتقلباتها حتى غبت عن نفسى ونسيت دليلتى وكانت روحى وعيناي
سائرات في السحب المستضيئة اللامعة .

ثم سمونا إلى مرتفع مغروسة فيه أشجار البتولا فصرنا نشرف من هذا
المرتفع على سهل مخضر النواحي مائج بالأشجار ، وفي وسطه كوخ صغير ،
وطرق مسامعنا نباح ، وفي الحال أقبل علينا كلب صغير وأخذ يثب حول
العجوز ويملقها ويلعب بذنبه ، ثم تقدم إلى بعد ذلك وحدق بى من كل
جوانبى وعاد إلى سيدته ، ونظر إليها نظرة صداقة وود ، ولما هبطنا الوادى
سمعت أناشيد غريبة آتية من ناحية الكوخ يغنيها طير من الأطيوار قائلاً
« ما ألد الحياة المنفردة في نواحي الغابة البهيجة وأحلاها حيث تمر الأيام
متشابهة الصفحات إلى الأبد ، وإنى لأهوى العزلة في الغابة البهيجة » ،
وكان يعيد هذه الكلمات القلائل بصوته المؤثر

وخطوت إلى داخل الكوخ ولم أنتظر إذن العجوز ، وكنا في الغبش ،
ورأيت داخل الكوخ نظيفاً ، وعلى رفوفه بضع كؤوس و براميل وقدر ،
ولحت طيراً فى قفص معلق بالنافذة ، فعرفت أنه مرسل الأنعام والأناشيد
المشجية ، وأصاب العجوز نوبة سعال ، وبدأت عليها آثار التعب

والإعياء ، ثم أخذت تلاعب الكلب وتناجى الطير وهو يجاوبها بأنشودته
المعهودة ، ولم تلتفت إلى حتى كأنها لم تتذكر وجودي ، وكنت كلما نظرت
إليها تجددت في نفسي المخاوف وأصابني القلق ، وكان وجهها دائماً الحركة
لما يعرفه من رجفات الشيوخوخة ، ولم أستطع طوال حياتي أن أفهم
نوع سحتها

ولما استعادت قوتها أشعلت شمعة ، ووضعت مائدة صغيرة وأحضرت
طعام العشاء ، ونظرت حولها تبحث عني ، ثم أمرتني بأن آخذ مقعداً
صغيراً فجلست أمامها والضوء بيننا ، وحلت عقدة يديها الضامرتين وأخذت
تدعو بصوت مرتفع ووجهها يتلوى ويتجمد وينقبض وينبسط حتى كدت
أغرق في الضحك ولكنني تماكنت نفسي خوف إغضاها

وبعد العشاء عاودت الصلاة والدعاء ، وأرتني مرقدى في ناحية صغيرة
منخفضة ، ونامت هي في الغرفة ، ولم ألبث أن ران على جفني الكرى فقد
كنت كليلة متعبة ، ولما استيقظت في الليل سمعت سعالها وحديثها مع
كلبها وطيرها ، وكان الطير كأنه مستغرق في الأحلام فلم يجاوب إلا بكلمة
أو كلمتين بصوته المنغوم ، وكانت تلك الأصوات تمزج بخفيف أشجار
البتولا وشدو العندليب للقبل من بعيد فيتكون منها مزيج غريب فكنت
لا أظنني مستيقظة وإنما أحسب نفسي متنقلة في عالم الأحلام من حلم غريب
إلى حلم أعرق منه في الغرابة

وأيقظتني في الصباح ، وعهدت إلي في بعض أعمال المنزل ، وصرت

أغزل ، وإلى الآن أجيد الغزل ، وكلفتني أيضاً بحراسة الكلب والطارئ ،
ولم أبطئ في حفظ واجباتي ، وبدأت أتناسى أيامي الماضية ، وصرت
لا أرى في منظر العجوز ما يثير الغرابة ويدعو إلى الدهشة ، ولا أرى
في كوخها المنعزل عن الناس شيئاً غير مألوف ولا أن هذا الطير مخلوق
في أقصى درجات الغرابة ، ولقد كان لجمال الطائر تأثير شديد في نفسي ،
وكان ريشه يلمع بكل الألوان ، وكان يتبدل على جسمه ورقبته ألوان زاهية
مختلفة ما بين اللون الأحمر القاني والأزرق الشديد الزرقة ، وكان عند
ما يتغنى ينتفش في عجب وخيلاء فيبدو ريشه أتم حسناً وأخلب لوناً

وكانت العجوز تذهب إلى الخارج ولا تعود إلا مع الليل فأخرج من
الكوخ لاستقبالها وفي صحبتي الكلب وكانت تدعوني بابتها
ولما تطاول العهد ألفتها وأحببتها ، وكذلك النفس في عهد الطفولة تألف
ما تتعوده ، وكانت تعانني في المساء القراءة ، وقد صارت القراءة بعد ذلك
من أكبر أسباب السلى في وحدتي المقفرة ، وكانت عندها جملة من
الأسفار القديمة تحوى عجائب القصص

ولا تزال تبدو لي ذكرى تلك الحياة الماضية غريبة ، ولم يزرنا أى مخلوق
وكنت محصورة في دائرة هذه الأسرة الصغيرة ، وقد ترك الكلب والطير
في نفسي الأثر الذي يتركه الأصدقاء في نفوسنا إذا طالت معرفتنا بهم ،
ولست أدري كيف نسيت اسم الكلب ، وقد كان غاية في الغرابة
وكرت أربعة أعوام على هذه الوتيرة ، وأظنني بلغت الثانية عشرة من

عمرى ، وصارت سيدتى العجوز تثق بى وأخيراً أفضت إلى بسر طالما كتمته
عنى وهو أن الطائر يبيض كل يوم بيضة فى داخلها جوهرة أو درة ، وكثيراً
ما كنت أشاهدها تنفلت إلى ناحية القفص ولكنى لم أكد الذهن فى
استطلاع أسباب ذلك ووكلت إلى جمع ذلك البيض عند غيابها وحفظه
بعناية فى القدور الغريبة الشكل ، وكانت تترك لى طعاماً كافياً ، وتقضى
الأسابيع والأشهر بعيدة عن المنزل ، وكانت عجلى الصغيرة دائماً الرنين ،
وكان الكلب ينبح والطائر يغرد ، وقد خيم على الأرجاء فى خارج الكوخ
سكون تام لا يشوبه شىء ، ولم يطرق أحد تلك النواحي ، ولم يكن بها
وحوش مفترسة ، وقد قنعت بهذه العيشة وربما كان سعيداً من استطاع أن
يقضى حياة هادئة لا يرنق صفوها شىء إلى النهاية

وكونت لنفسى من الأسفار القلائل التى قرأتها أفكاراً غريبة عن
الدنيا ، وكانت جميع تلك الأفكار مأخوذة من نفسى ومستمدة مما حولى ،
ولما قرأت عن الحذاق الأذكياء تصوراتهم أشباه معاشرى الجرو ، وكنت
إخال الفتيات القاتنات مثل الطائر ، وأظن أن كل النساء العجائز يشبهن
سيدتى العجوز ، وقرأت قليلاً عن الحب ، فصرت أبتدع لنفسى فى الخيال
قصص الحب وروايات الغرام ، وكنت أرسم لنفسى صورة أجمل أبطال
الأرض وأسبع عليه صنوف الكمالات وأحبوه بشتى ضروب الحسن وإن
كنت أجهل بعد ذلك الاجتهاد كله شكل محياه ، وطالما رثيت لنفسى
واستصغرت شأنى عند ما كنت أراه معرضاً عنى مستخفاً بحجى فأفتن فى

استجلاب رضاه وانا جيه مناجاة رقيقة تستلين القلوب القاسية وتستنزل
الأعصم من هضابه العالية وأرفع الصوت في رنة شجية لأسترجع قلبه
وأسترد حبه ، وأراك الآن يا سير ولتر تبتسم لذلك ! لقد ودعنا جميعا ذلك
العهد فليست بهجته علينا بمردودة ولا أيامه إلينا براجع

وكنت أفضل أن أترك وحيدة ، فقد كنت أرى نفسى إذ ذاك سيدة
المنزل المتصرفة في شؤونها النافذة الكلمة في رحابه ، وكان الكلب يحبنى
ويطيعنى ، والطير يجاوبنى بأشعاره وقد أكسبها صوته الرخيم رقة ، وكانت
عجلى دأمة الدوران ، ولم أبغ بديلا من تلك الحياة ، وكانت سيدتى عند
عودتها من رحلاتها الطويلة تمتدح تديبرى وتكبر نشاطى واجتهادى
ويسرها نمو جسمى وما تراه على من دلائل الصحة والعافية ، وكانت
تعاملنى كابنة لها ، وقالت لى مرة بصوتها الخشن الجاف « أنت طفلة صالحة
إذا دمت على تلك السيرة وستجنين من وراء ذلك أزاهير الخير وثمار الأعمال
الصالحة ، ولكنك إذا نكبت عن ذلك الطريق المستقيم تذبل أغصان
سعادتك وتتساقط أوراقها ويحل بك العقاب ، وإن كانت العقوبة قد
تجىء عرجاء متأخرة » . ولم أعر كلماتها هذه كبير عناية فقد كنت فى ذلك
الوقت فرحة طروباً وكان يبدو المرح والحبور فى أخلاقى وحركاتى ، وأعادت
على سمعى فى الليل ما قالته فى الصباح ، ولم أعلم سر هذا التكرار ، وبدأت
أتدبر كلماتها ، وكنت قرأت عن المال والثروة فخطر ببالى أن مجوهراتها قد
تكون شيئاً فى غاية النفاسة ، ولم يمض زمن طويل حتى اختمرت هذه

الفكرة في نفسى وأخذت تزداد وضوحاً وجلالاً وتنتفى عنها غياهب الشكوك
والخاوف ، ولكن ما هو ذلك الطريق المستقيم وما الذى تقصده بقولها
التنكيب عنه وما الذى ترمى إليه من وراء ذلك كله ؟

وكنت بلغت حينذاك الرابعة عشرة ، ومن شقاء الإنسان أن يصاب
بالفهم ويبلل بالفطنة وأن تودعه البراءة والبساطة ، ورأيت أننى أستطيع
الاستيلاء على الجواهر والطير في غياب العجوز وأنطلق بها . وشاقتنى رؤية
الدنيا التى قرأت عنها في الكتب ، وظننت أن المقادير قد تسعفنى فالتقى
بذلك البطل المهجان أنصر أهل الأرض حسناً المقيم في ذاكرتى ، وكانت
هذه الفكرة في بادىء الأمر فكرة عارضة وخطرة طارئة ، ولكنها صارت
تعاودنى عند ما أجلس إلى جانب عجلى ويطول بينى وبينها الغلاب ،
وفي بعض الأوقات كانت تظفر بى وتتغلب علىّ إلى حد أنى أتلفت إلى
نفسى فأرانى في فاخر الثياب مزدانة بساطع الجواهر وحولى الأميرات
والفرسان

وكنت كلما استفتقت من تلك الأحلام ونظرت حولى فرأيت الكوخ
الصغير حزنت أشد الحزن ، وكانت العجوز ترانى قائمة بإنجاز واجباتى
مكبة على أعمالى ولذا لم تتعب نفسها فتيلة لتتعرف ما يدور برأسى من
الأفكار وما يلم بنفسى من الإحساسات

وأخبرتني في ذات يوم أن غيبتها ستطول ، ونصحت لى بأن أكون
شديدة اليقظة دائماً الانتباه للمنزل ، وأن لا أدع الزمن يمر بى مملاً ثقیلاً

الخطي ، وغشى نفسى الخوف حين فراقها فقد كنت أشعر بأن هذه آخر مرة أراها ، وأتبعها الطرف حتى اختفت ولم أعلم بواعث الحزن الذى غمر نفسى وسال بى سيله بعد مسيرها ، وكأنما كان الغرض الذى رميت إليه ماثلاً أمامى دون أن أعى ذلك أو أتعده

وتعهدت الطير والكلب بعناية أتم ورعاية أكثر مما كنت أفعل فى الأيام السابقة ، وبعد ذهابها بأيام قلائل نهضت فى الصباح وقد جمعت العزيمة على ترك الكوخ وحمل الطائر والارتحال لمشاهدة الدنيا التى قرأت الكثير عنها ، وكنت أشعر بضيق وتردد ، كنت أود البقاء فى الكوخ ولكن فكرة البقاء مع ذلك كانت تكربنى وتؤلم نفسى ، وشب بين جوانحى صراع شديد كأننى كنت منه بين روحين متعاكستين ، فتارة كانت تبدو لى الوحدة الهادئة جميلة مستعذبة ، وطوراً كانت تتمثل لى صورة الدنيا الجديدة مخفوفة بالغرائب التى تققاد الأهواء وتسحر النفوس وكنت فى حيرة من أمرى ، وكان الكلب لا ينقطع عن الحركة والقفز حولى ، وانتشرت أشعة الشمس فوق الحقول والتمعت أشجار البتولا الخضر ، وكنت أشعر بأن هناك عملاً على أن أبادر إلى إنجازها ، ثم نهضت وقبضت على الكلب وجبسته فى الكوخ مقيداً وحملت قفص الطائر تحت ذراعى ونبح الكلب نباحاً متواصلاً لتذمره من تلك المعاملة التى لم يتعودها ونظر إلى نظرة توسل واستعطاف ، ولكنى خشيت وجوده معى وحملت قدراً من قدور الجواهر وخبأته معى وتركت الباقي

ولما عبرت الباب أحنى الطير رأسه بشكل غريب وعالج الكلب صدع
قيوده فلم يستطع وأرغم على البقاء والركون إلى السكون
ولم أسلك طريق الصخور الأوابد ، وسرت في طريق معارض لها ،
وكان الكلب لا يزال ينبح ، وكان نباحه يمس صميم قلبي ويهز نفسي ،
وحاول الطير أن يغني فأسكتته اهتزازات القفص المتوالية وأنا أحمله
وكنت كلما ابتعدت قل النباح وخفت حتى غابت آثاره من أذني فبكيت
وحاولت العودة ولكن شوقى إلى رؤية الدنيا منعنى من ذلك

ولما أقبل الليل كنت قد جرب التلال وبعض الغابات ولم أجد مندوحة
عن التعرّيج على قرية ، من القرى القريبة ، ولما دخلت الحان الهببت
تورد وجهى حياء وأرونى غرفة ومرقداً ، فنمت نوماً هادئاً ولكنى رأيت
العجوز فى الحلم وهى تتوعدنى

ولم تكن سياحتى ملاءمى بالتنوع ولا حافلة بمختلف الحوادث ، وكنت
كلما أمعنت فى السير تذكرت سيدتى العجوز وكلبها الصغير ، ورجحت
أن الكلب سيموت من الجوع ، وكنت فى أثناء سيرى بالغابة أخشى أن
ألتقى فجاءة بسيدتى ، وهكذا كنت أسعى بين الدموع والحسرات ، ولما
كنت أقف لأستريح وأضع القفص على الأرض كان يطلق الطير أغنيته
فيعيد إلى نفسى صورة المسكن الجميل الذى هجرته ، والطبيعة البشرية
سريعة النسيان ، ولذا خلت أن رحلتى السابقة فى عهد الطفولة لم تكن
محزنة تعسة كرحلتى الحاضرة وكنت أتمنى عودة ذلك العهد

وبعت بعض الجواهر فى الطريق ، و بعد مسير عدة أيام لاحت لى قرية
فقصدتها ، وانتابنى حين دخولها شعور غريب لم أدر سببه ، ولكنى
تذكرت بعد ذلك أنها القرية التى ولدت بها فاشتد تعجبى وتدفقت من
عينى الدموع دموع الحزن والسرور لما ثار بنفسى من قديم الذكريات ،
ورأيت أشياء كثيرة قد تغيرت وحال حالها ومنازل جديدة لا عهد لى بها
وأخرى كنت أعهدا جديدة البنيان قد تداعت جوانبها وعبث بها البلى ،
وكان كل شىء أصغر حجما وأضيق نطاقاً مما تصورت ، واستفزنى الطرب
لأنى سأرى والدى بعد تلك الغيبة الطويلة ، وعرفت كوخهما الصغير
ومدخله المعبود وكان مزلاج الباب لا يزال فى موضعه ، وخيل إلى أنى أقتلته
أمس ووجب قلبى لما شرعت فى رفعه ، ولكن وجوها لم أكن أبصرتها
من قبل طالعتنى من المنزل ونظرت إلى وحدت فى فسأت عن
الراعى مارتن ، فأخبرونى أنه توفى هو وزوجته منذ ثلاث سنوات ،
فأسرعت فى ترك القرية وأنا أ كففك الدموع وأموة العبرات ، وكنت
قد رسمت لنفسى بريشة الأمانى الخادعات صورة أنيقة للقائهما بثروتى
الطائلة ، وكنت أعجب من أحكام المصادفة وكيف أن أحلام الكنوز والمال
التي كنت أراها قد أصبحت حقيقة ملحوظة ، ولكن كل تلك الأمانى
لم تلبث أن أصبحت باطلا وتضليلا ، وقد طوى الآن كل شىء ولم يعد
فى وسعهما أن يقاسماني الثروة والسعادة ، وقد كان لقاؤهما هو الأمل المرجى ،
ولكن هذا الأمل قد انقضى ولن يعود أبد الدهر .

وقصدت مدينة حسنة الموقع جيدة الهواء واستأجرت منزلاً صغيراً
محوطاً بحديقة واتخذت لى خادمة ، وإني أعترف الآن بأنى لم أجد الدنيا
غريبة رائعة كما صورتها لنفسى ، وتناسيت بعد ذلك المرأة العجوز وأسلوب
حياتى السابق وعشت قاعة راضية .

وكان الطير قد امتنع عن الغناء مدة طويلة ، ولذا اشتد خوفى حين
عاود الغناء فى ذات ليلة بنغمة مختلفة مردداً « ما ألد الحياة المنفردة فى الغابة
البهيجة وأحلاها حيث تمر الأيام متشابهة الصفحات إلى الأبد ! وإني
لأهوى العزلة فى الغابة البهيجة » ولم تذق عيناى الغمض تلك الليلة ، وأخذت
تثور فى نفسى كوامن الذكريات وشعرت شعوراً أقوى من شعور الأيام
السابقة بأنى أسأت التصرف وحدث عن الحق ، وكانت رؤية الطير تنكأ
جرح نفسى وتستورى جمراتى الخابية ، وكان يديم النظر إلىّ ثم صار لا ينقطع
عن التغنى بصوت حاد أعلى من صوته السابق ، وكنت كلما نظرت إليه
ازدادت شجونى وعظمت مخاوفى ، ولما أعيانى أمره فتحت القفص وأخرجته
منه وأمسكت برقبته وضغطت عليها بأناملى ، فنظر إلى فترفت به وخففت
الضغط ولكنه كان ميتاً فواريت بقاياها فى الحديقة

بعد ذلك خشيت خادمتى وأسأت بها الظن فكنت أكثر من التلفت
ورأى وخفت أن تقتلنى الخادمة أو تسلبنى جواهرى ، وكنت عرفت من
زمن فارساً فى ميعة الشباب فهو يته وخفق قلبى بحبه وقد منحته يدي
وبذلك يا سير ولتر تنتهى قصتى »

فقال أ كبرت متحمساً « كان يلزم أن تكون قد نظرتها في ذلك العهد
ورأيت شبابها الغض وما أفاضه عليها من الرشاقة أسلوبها المنفرد في الحياة .
ولم أكن أملك شيئاً وقد أنتفى كل هذه الثروة من وراء حبها وزواجي بها
وقد انتقلنا إلى هنا بعد الزواج ، ولم يجلب لنا زواجنا في أى وقت من
الأوقات سوى اليمن والخير »

فقالت برتا « لقد قضينا أكثر الليل في الحديث والثروة فلنذهب
الآن للفراش » ، ونهضت لتتوجه إلى مخدعها ، فقبل السير ولتر يدها
وحياها وقال لها شكراً يا سيدتى النبيلة ، إنى أستطيع أن أتصور
صورتك وأنت إلى جانب طيرك المغرد الصداح وكيف كنت تطعمين
« ستروهميان الصغير »

وذهب ولتر أيضاً إلى مرقدده وبقي اكبرت في القاعة يتمشى ذهاباً وإياباً
وهو قلق النفس نائر الروح ، ثم قال لنفسه أخيراً « إن أكثر الناس بله
حقى ، وأنا نفسى قد طلبت إلى زوجتى أن تقص على صديقى تاريخ حياتها ،
ولقد وضع لى الآن أن ثقتى به ليست في محلها ، وأن صديقى سيستغل
تلك الثقة ، وسيبوح للغير بسرنا ، وسينفـس علينا جواهرنا ويختلق الأعذار
ويبتكر الحيل ليسلمنا إياها ، وتلك شيمة الإنسان وطبيعته »

وخطر بباله أن ولتر حياه تحية فاترة على عكس ما كان ينتظره بعد أن
نفـض على مسامعه أسرار حياته ودخائلها ، والإنسان إذا أساء الظن رأى
في كل صغيرة سبباً يؤكده سوء ظنه ، وكان اكبرت من ناحية أخرى

يلوم نفسه ويعنفها لأنه صار يشعر بمثل هذا الشعور الوضيع من ناحية صديق
من أعز أصدقائه عليه ، ولكن لم يكن في وسعه اطراح تلك الأفكار ، وقد
قضى الليل في معالجتها ولم ينم إلا قليلا

واستيقظت برتا في صباح اليوم التالي مريضة ولم تستطع الحضور لتناول
الإفطار ، وأغضى ولتر عن السؤال عن صحتها ، وودع زوجها وداعا فائرا ،
ولم يفهم اكبرت سر هذا الانقلاب ، ثم توجه لرؤية زوجته ، فوجدها
محمومة ، وقالت له إن قصة الليلة الماضية أثارت شجونها

ومنذ ذلك الحين لم يزر ولتر قلعة صديقه إلا نادرا ، وكان يظهر ليقول
كلمات قليلة لا معنى لها ثم يذهب لسبيله ، ولم يسترح اكبرت لهذا المسلك ،
وكتم ما في نفسه عن ولتر وعن زوجته ، ولكن كانت تبدو عليه لوائح
الهم والقلق والخوض في غمرات الأفكار

وازداد مرض برتا شدة ، واشتد خوف الطبيب على صحتها ، واختفى
التورد من وجنتيها وقل توقد عينيها وفي ذات صباح استدعت زوجها إلى
جانب فراشها وأمرت وصفاتها بالابتعاد ، وقالت « يا اكبرت العزيز ،
أود أن أفضي إليك بسر قد سلبنى الصبر والتأسي وأفسد صحتي ولو أنه قد
يظهر ضئيل الأهمية قليل الشأن ، ولعلك تذكر أنني حين كنت أقص
قصتي لم أستطع أن أتذكر اسم الكلب الذي كان يمكث طويلا إلى
جانبي ، وفي الليلة نفسها قال لي السير ولتر وهو يستأذن للذهاب إلى مرقده
« إنني أستطيع أن أتصور صورتك وأنت جالسة إلى جانب طيرك المغرد وكيف

كنت تطعمين ستروهميان الصغير « والآن هل هذا من قبيل المصادفة ؟
أو هل هذا ضرب من التخمين ؟ أو هل كان يعرفه من قبل وذكره لغرض ؟
وإذا صح ذلك فانه يثبت أن لهذا الرجل صلة شديدة بتاريخ حياتي ، وأنى
في بعض الأحيان أخادع نفسي وأكذب حديثها ووسواسها وأحاول أن
أدخل عليها أن هذه المسألة ضرب من الأوهام ، ولكن وأأسفاه إنها حقيقة
ثابتة لا سبيل إلى إنكارها ، وقد ساءنى أن يعيننى رجل غريب على
استعادة ذكريات أسرار حياتي ودخائلها فإذا تقول فى ذلك يا اكبرت ؟ »
فنظر اكبرت إلى زوجته المريضة وقد ظهرت عليه آثار الانفعال
والتأثر ، ووقف صامتاً مطرقاً ذاهباً من الفكر فى كل مذهب ، ثم تكلم
ببعض كلمات يرفه بها عن نفسها ويهون عليها الأمر ، ثم ترك حجرتها ،
وذهب إلى حجرة بعيدة وأخذ يتمشى فيها ذهاباً وإياباً وهو مضطرب الخاطر
أشد اضطراب ، وقد مضت سنوات طويلة وولتر صديقه الوحيد ، ولكنه
أصبح الآن الشخص الوحيد الذى يقلقه وجوده وتسوؤه حياته ، وظن أنه إذا
زال من طريقه هذا الإنسان ارتفعت عن قلبه الأثقال وصفت نفسه ، وتنكب
قوسه وخرج للصيد والقنص رجاء أن يصرف عن نفسه هذه الأفكار

وكان اليوم من أيام الشتاء العاصفة ، وكان الجليد يغطى التلال
ويحنى فروع الأشجار ، فطاف أكبرت فى النواحي المجاورة لقلعته ، وكان
العرق يتصبب من جبينه ، ولم يجد صيداً فزاده ذلك كدراً ، وبينما هو
كذلك إذ ملح من بعيد شيئاً يتحرك ، ولما لاحظته تبين له أنه ولتر يجمع

الطحلب من جذوع الاشجار ، ، فحفي قوسه وهو غير شاعر بما يصنع فنظر
ولتر حوله وأشار إشارة تهديد وكان السهم قد انطلق فسقط مصاباً به
فشعر اكبرت بأن همه قد زال وبأن نفسه قد هدأت ، ولكن خوفاً
خاصاً ساقه إلى القلعة ، وكان الطريق طويلاً متراحي الشقة لأنه كان قد
توغل في الغابات ، وعند وصوله القلعة وجد زوجته برتا قد توفيت وتحدثت
قبيل وفاتها كثيراً عن ولتر والمرأة العجوز

وعاش اكبرت بعد هذه الحادثة ردىاً من الزمن في عزلة تامة ، وقد
كان طوال حياته أليف الحزن لأن تاريخ زوجته العجيب كان يقلق باله
ويثير خواطره وكان دائماً يخشى حدوث كارثة رهيبة أو خطب مروع ،
وكان الآن في نزاع شديد مع نفسه ، وكان قتله لصديقه لا يبرح باله فيظل
في ندم مستمر

وكان من الحين إلى الحين يزور المدينة المجاورة ويخالط الناس وينغمس
في الملامح ليصرف عن نفسه هذه المشاعر ، وكان مشتاقاً إلى صديق يملأ
فراغ نفسه ، ولكن عند ما كان يتذكر ولتر كان يفرغ من فكرة لقاء
الصديق لأنه كان واثقاً من أنه قليل الحظ في الصداقة ، وقد عاش طويلاً
مع برتا في سكون وديع محبب إلى النفس ونعم بصداقة ولتر سنين عدة ،
ولكنهما الآن قد أمعنا في الغياب وطاحت بهما عواذي الدهر ، وكانت
تمر به لحظات حين يطيل التفكير في ذلك تتراءى له حياته كأنها قصة
خرافية وليست تاريخاً صحيحاً لرجل حي

ثم تقرب من اكبرت الصامت الحزين فارس شاب يدعى هيجو

وأظهر له خالص العطف وصادق الود فعجب اكبرت لذلك أشد العجب ورحب بصدافته وزاده تقديراً لها أنها جاءت على غير انتظار ، وأصبح الاثنان متلازمين في أكثر أوقاتها ، وكان هيجو يظهر لصديقه الرعاية التامة والعناية الفائقة ، ولم يكن أحدهما يركب إلى الصيد دون أن يصطحب الآخر ، وكانا يزوران معاً كل نادٍ حفيلى ويندران أن تراهما منفصلين .

ولم يسر اكبرت بصدافة هيجو سوى فترة يسيرة ، لأنه كان يشعر بأن هيجو قد أحبه خطأ وأنه لا يعرفه وأنه يجهل تاريخه ، واستولت عليه رغبة ملحة في أن يكشف له مجاهل ضميره ويطلعه على مصون سره ليستوثق من صداقته ، وليعرف أهو صديق أم غير صديق ، ولكنه كان يخشى أن هيجو قد يستنكر جريمته ويعيب عليه فعله ويستريب في صداقته وكان يقضى من أجل ذلك الساعات مفكراً في تفاهته وقلة قيمته ويشعر بأن أى إنسان يقف على سره ويعرف تاريخه لا بد من أن يحتقره ولا يعبأ به ، ولكنه مع ذلك لم يستطع مغالبة نفسه ورد جماعها ، فأفضى إلى هيجو بسره حين ركوبهما للصيد منفردين وسأله بعد ذلك هل يقبل صداقة قاتل ، فبدأ على هيجو التأثير وحاول أن يهدئ خاطره ، فعاد اكبرت إلى المدينة وقد هدأ باله وصفت نفسه

ولكن من سوء حظها الملازم أنه كان يجد في إبان الثقة والاطمئنان ما يدعو إلى الظن والريبة فناعتم أن دخل قاعة الاجتماعات العامة مع صديقه حتى رأى في ضوء الأنوار اللامعة أن نظرات هيجو مقلقة لا تسر

الخطر وأحسن أن في ابتساماته شراً وخبثاً ، وأنه يحادث بقية الجماعة
ولا يحادثه كالمعتاد ولا يعبا بوجوده ولا يعيره أدنى اهتمام ، وكان في الجماعة
فارس متقدم في السن قد أظهر دائماً لا كبرت العدا والبغضاء ، وطالما
أكثر من السؤال عن ثروته وماله وزوجته بأسلوب خاص ، وكان هيجو
قد أقبل على هذا الفارس يحادثه ويسأره وكانا يريان اكبرت بنظرات
حشوها شزر ، فأكد ذلك سوء ظن اكبرت وجال بفكره أنه قد خدع
واستولى عليه غضب شديد ، ولما أطال النظر إلى وجه هيجو استبان
في وجهه ملامح ولتر ، ولما أعاد التحديق في وجهه وثق من أن الذي
يحادث الفارس هو ولتر نفسه ، فخرج من القاعة مسرعاً وهو لا يملك نفسه
فرعاً وجزعاً وترك المدينة تحت أستار الليل وعاد إلى قلعته بعد سياحة طويلة
ولما وصل إلى هناك أخذ يتنقل من حجرة إلى أخرى في سرعة
واضطراب وانتالت عليه الأفكار الخفيفة والخواطر الرهيبة ولم تغتمض عينه
تلك الليلة ولم يقر له قرار حتى ظن أنه قد أصابته جنة من هول ما رأى ،
ثم أخذ يستحضر في مخيلته كل ملامح ولتر فازداد الأمر في عينه غموضاً
والتباساً وصمم على القيام برحلة لتهدأ خواطره الثائرة وينفس عن نفسه
المسكروبة وقد يئس من الصداقة والمجتمع جملة ونفض يديه منهما .

وترك القلعة ولم يرسم لسيره خطة ولم يحفل بالنواحي التي مر بها ، وفي
ذات يوم بينا هو يستحث جواده فيسرع به إذ وجد نفسه بغتة محوطاً
بسلاسل من الصخور المشتبكة لم يستطع أن يجد لنفسه من بينها مخرجاً ،

وبعد لأى لقي مزارعا مسنفاً فأرشده إلى طريق يمر إلى جانب شلال ،
 فأراد أن يثيبه على إرشاده إياه بشيء من النقود فأبى المزارع أن يأخذ
 شيئاً ، فقال أ كبرت « وماذا يجدى ذلك إني إخال هذا الرجل ولتر نفسه »
 ثم نظر حوله فرأى ولتر فاستنهض جواده فانطلق الجواد يعدو ملء عنانه فوق
 المروج والحقول حتى سقط من الإعياء ، فأسرع أ كبرت إلى الأمام جرياً
 على القدم فصادف تلاً فتسلقه وهو مسترسل فى أحلامه ، وخيل إليه أنه
 يسمع نباحاً على مقربة منه ، وكانت أشجار البتولا تتهامس وتتناجى ،
 وسمع أ كبرت أغنية غريبة للحن تقول « لقد عاودت الإقامة فى الغابة
 الهبيجة منفردة حيث لا يستطيع أحد أن يغتالنى ولا أن تصل إلى الشورور
 وسأبقى هنا فى الغابة الجميلة » ففقد أ كبرت الإحساس والوعى ، ولفه ليل
 معتكر من الدهول والحيرة واشتبه عليه الأمر ولم يدر أهو الآن فى حلم
 أم أنه قد حلم من قبل بزوجة وصديق ، وكان يرى الغريب الرائع ممزوجاً
 بالملأوف المعهود وتبدت له الدنيا حوله مسحورة وأنه عاجز عن التفكير والتذكر
 ورأى عجوزاً مقوسة الظهر تدب فوق التل وهى تسعل وفى يمينها عكاز ،
 ثم صاحت به « أتستطيع أن ترد إلى طيرى وجواهرى وكلبى ؟ أنظر كيف
 تعاقب الإساءة نفسها ؟ لقد كنت أنا ولتر وكنت كذلك هيجو » فقال
 أ كبرت وقد جهم لنفسه « يارب السماء : فى أى عزلة رهيبة قد
 أمضيت حياتى ! »

ثم قالت العجوز « ولقد كانت برتا أختك »

فسقط اكبرت على الأرض — واسترسلت العجوز تقول « لماذا تركتني
وخذعتني ، لقد كانت الحياة سبتبتسم لها ، وأمضت وقت التجربة
والاختبار ، ولقد كانت ابنة أحد الفرسان ، وقد رباها في منزل صياد ،
كانت ابنة أبيك ! »

فقال اكبرت « لماذا شعرت من قبل بظل تلك الفكرة الرهيبة ولحقتها
من بعيد ؟ »

فأجابته « لأن والدك أخبرك مرة وأنت في مطالع الشباب أنه لا يستطيع
أن يبقى ابنته معه من أجل زوجته الثانية »

وكان اكبرت مطروحاً على الأرض حائراً يلفظ آخر أنفاسه ، وكان
يسمع وهو يغيب عن نفسه في سكرات الموت العجوز تتكلم والكلب ينبج
والطائر يعيد أناشيده الندية وأغانيه الروية



قصة الكأس

(للكاتب الألماني لودفيغ تيك)

الفصل الأول

كانت أجراس الظهر تدق من الكنيسة الكاتدرائية العالية ، وكان الرجال والنساء في جيئة وذهوب بالساحة المنبسطة أمام الكنيسة ، وكانت العربات تكرر وتسير ، وكان القساوسة يحثون الخطي متجهين إلى كنائسهم المختلفة ، وكان فرديناند واقفاً على السلم العريض يرمق الناس وهم قادمون للصلاة ، وكانت أشعة الشمس تلمع فوق الأحجار البيض ، وكان الناس يبحثون عن ملجأ يرد لوافح الشمس وحرها ، وكان هو الوحيد الذي قضى وقتاً طويلاً معتمداً على عمود بين الأشعة الحارة اللاخبة غير محتفل بها كأنه لا يحس وقداتها ولا يتأذى بلذعها لأنه كان مستغرقاً في طوائف من الأفكار كانت تتجمع في عقله ، وكانت تنظم في سلك ذاكرته صور حياته السابقة ، وكان يوقظ من نفسه كل عزيمة راقدة ويشب منها كل همه خابية بذلك الشعور الطريف الذي تخلل حياته وأفاض صبغته على كل رغباته وفي مثل هذه الساعة من العام الفأنت كان واقفاً هنا ناظراً إلى النساء والفتيات المجتمعات بقلب غير مكترث ووجه متهلل مشرق ، وكان يشاهد

الحفلة المزينة المزخرفة وتلتقى بالحاظه في مكر وخلافة الحاظ مترعة بالمطف والحنان ، وكانت خدود تتورد خجلا وألحاظ ترتد حياء ، وكانت عينه المشغولة الدائبة الحركة تلمح القدم الدقيقة وكيف كانت تصعد درج السلم وكيف كان الثوب الهفاهف يتمايل على جوانبه فتظهر من تحته أرساغ القدم اللطيفة ، واجتازت الساحة حسناء ريانة الشباب مرتدية ملابس سوداً ، وكانت هيفاء نبيلة الطلعة غاضة الطرف في انكسار وفتور ، وكانت تصعد السلم غير ملتفتة إلى شيء في رشاقة مستحبة ، وكان ثوبها الحريري مفاضاً على أبرع الصور وأجمل الأشكال ، ولما بلغت آخر درج السلم رفعت رأسها بغتة ، فالتقى لحظها بلحظه فصب في عينه شؤ بوباً من الضوء الصافي

وقد أصمته سهام تلك النظرة ونفذت إلى صميم نفسه ، ثم داست قدمها أطراف الرداء ، وبينما هو يسرع إليها لم يستطع أن يمنعها من الركوع أمام قدميه لحظة وهي في شكل يطبي نافر الأهواء ويسلس جاحمها ، وأخذ بيدها وأنهبها فلم تنظر إليه ، كانت كلها حياء وخجلا ، ولما سأها هل أصابها جرح أو لا لم تملك إجابته ، فتلاها إلى الكنيسة ، ولم تكن روحه سوى مرآة تتراءى في صقالها الصورة التي كانت راكعة أمامه وتلك الزهرة المتفتحة التي مثلت لعينه

وفي اليوم التالي زار مدخل الكنيسة ، وصار هذا المكان مقدساً في عينه ، وقد كان في نيته قبل ذلك مواصلة الأسفار ومتابعة الرحلات ، وكان رفقاؤه ينتظرونه بصبر وقلق في المنزل ، ولكن منذ ذلك اليوم صار

هذا المكان مآلف نفسه ومهوى أفكاره ومعقد أهوائه وكان يراها في أوقات كثيرة ، ولم تكن هي تتجنب لقاءه ، ولكن كانت لا تستطيع أن تقترب منه أكثر من دقائق متقطعة منتهبة من خلسات الزمان وغفلات العيش لأن أسرتها الواسعة الثروة العريضة الجاه كانت تشدد الرقابة عليها ، وفضلا عن ذلك كان لها خطيب عظيم المكانة قوى النفوذ شديد الغيرة

وكانا يتبادلان الاعتراف بالحب ولكنهما لا يعرفان ما يصنعان بعد ذلك ، لأنه كان غريباً وليس في طاقته أن يقدم لمحبوبته ثروة طائلة كما كان ينتظر ، وكان يشعر الآن بخصاصته ونضاضة وفره ، ولكنه لما كان يعيد النظر في أسلوب حياته السالفة كان يخيل إليه أنه سائر إلى طريق الغنى والثروة وأنه سيفغدى العيش أخضر صافياً فقد أصبحت حياته طاهرة نقية وصار قلبه مجالاً للمواطف الكريمة وكان الطبيعة كشفت له الغطاء عن محاسنها وأطلعته على فتان جمالها ورائع حسناتها ، وصار يشعر بأنه ليس بعيداً عن الدين والعبادة ، وكان الآن وهو يجوز مدخل الكنيسة وظلال المعبد الخفية الغامضة تنتابه مشاعر لم يكن يعهدها في أيام لهوه وطيشه ، وقد هجر أصحابه ومعارفه وعاش للحب ، ولما كان يمر من الشارع الذى فيه منزلها ويراها مطلة من النافذة كان يقضى نهاره سعيداً رضى البال منشرح الصدر ، وكان يخاطبها في أغلب الأحيان في غبش المساء ، وكانت حديقة منزلها مصابة لحديقة صديق له لم يكن عالماً بسرّه ، ومر عام على هذه الوتيرة

مرت كل هذه المشاهد في ذاكرته ، ثم رفع عينيه فإذا بتلك الصورة

النبيلة تنسل إلى الساحة الممتدة أمامه ، وكانت تشرق بين الجموع المحتشدة
إشراق الشمس ، وصدحت في قلبه الملب بالأشواق موسيقى عذبة ، ولما
دنت منه انفلت إلى الكنيسة ، وهناك قدم لها الماء المقدس ، وكانت أصابعها
البيض تهتز عند ما تلمس أصابعه ، ثم انحنى شاكرة في رقة ووداعة ،
ثم تبعها وسجد على كثر منها ، وكان قلبه يكاد يذوب حياءً ويقطر حزناً ،
وكان يظن أن روحه من جروح الاشتياق الرغيبية وصدوعه الدامية تكاد
تفنى في توسلات مستحرة ، وكانت كل كلمة من كلمات القسيس تدوى في
نواحي نفسه ، وكل نغمة من نغمات الموسيقى كان ينهمر سيلها الصافي إلى
صدره فيزداد حباً وإيماناً ، وكانت شفتاه ترتعشان والفتاة الحسنة تدنى
صليب سبحتها إلى فمها الياقوتي ، فما كان أجهله بالحب والإيمان قبل ذلك ،
أما الآن فقد أصبح قلبه ممتلئاً بالحب حافلاً بالإيمان

ورفع الكاهن القربان ودق الجرس ، فانحنى في ضراعة وخشوع
ورسمت الصليب على صدرها ، وكأنما مس مشاعره ووجدانه في التو واللحظة
مثل ومض البرق ، ومثل له أن الصورة التي على المذبح قد دبّت فيها الحياة
وأن النوافذ الكامدة الألوان قد استحال جنة مشرقة بالأضواء ، وفاضت
مدامعه واستبقت عبراته تخففت من نيران قلبه وهدأت بعض ما به

وانتهت الصلاة فقدم إليها الإناء المقدس وتبادلا بعض الكلمات ثم
انسجت هي ، وتريث هو قليلاً كي لا يسترعى النظر ، واتبعها الطرف
حتى اختفت حاشية ثوبها وصار يشعر شعور الجوابة الحائر في نواحي غابة

متباعدة الأطراف متكاثفة الأشجار وقد غابت عن نظره آخر أشعة من
شعاع الشمس الغاربة ، ولكنه انتبه من غفوته وأحلامه واستيقظ من
تأملاته وسبحاته عند ما ربتت على كتفه يد عجوز ضامرة ودعاه بعض
الناس باسمه

فأجفل وتراجع إلى الوراء وعرف صديقه ألبرت المسن الملهب الطبع
الدانى الغضب والذي كان يعيش فى عزلة عن الناس ، وكان منزله المنفرد
مباحاً لفرديناند وحده ، وقال له بصوته الأجش « أتذكر الوعد الذى
ارتبطنا به ؟ »

فأجابه فرديناند « نعم ، وهل عقدت النية على أن تفى اليوم بوعدك ؟ »
فأجابه ألبرت « نعم وفى هذه الساعة فاتبعنى إذا شئت »
فسارا فى المدينة إلى شارع قاص ، وهناك دخلا عمارة كبيرة ، وقال له
ألبرت « اليوم يلزم أن تتغلغل معى إلى غرفتى البعيدة المنعزلة حتى لا يكدر
صفاءنا أحد ، ثم قرّأ من غرف عدة وصعدا بعض الدرج ثم اجتازا
ممرات كثيرة ، وكان فرديناند يظن أنه قد أجاد معرفة هذا المنزل وأحاط
بكل نواحيه خيراً ، وقد تعجب من كثرة غرفه وحجراته وتنسيقه الغريب
وكان يزيد فى دهشته أن يسكن مثل هذا المنزل الفسيح الرحب شيخ
أعزب منفرد مع عدد قليل من الخدم ولا يترك الحجرات الزائدة عن
حاجته للناس

ثم فك ألبرت مزلاج إحدى الحجرات وقال « ها هنا المكان الذى

قصده « ، ودخلا حجرة واسعة عالية مغطاة الحيطان بنسيج أحمر اللون محلاة أطرافه بخطوط مذهبة ، وكانت المقاعد مغطاة بالقماش الأحمر نفسه ، وكان يأتي ضوء أرجواني من خلال الأستار الأحمر الحريرية الضخمة ، ثم قال له البرت « انتظر قليلا » وذهب إلى حجرة أخرى ، فتناول فرديناند بعض الكتب فوجد بها كتابة غير واضحة ودوائر وخطوطا ولوحات عجيبة ، ومن الأشياء القليلة التي استطاع قراءتها استبان له أنها كتب في الكيمياء ، وقد كان يعلم من قبل اشتهار ذلك المسن بصنع الذهب ، وكان هناك مزهر معلق على المنضدة وكان محلى بالصدف وخشبه ملوناً ، وعليه صور تمثل طيوراً وأزهاراً بديعة الرسم غاية في الإتقان ونهاية في الدقة ، وفي وسطه صدفة كبيرة في داخلها صور مستديرة متقاطعة مثل وسط النافذة في الكنيسة القوطية الطراز وقد تهمر فيها صانعها حتى أوفى على الكمال . ولما عاد البرت ورآه يفحص المزهر قال له « أنت تتأمل في صنع مزهرى ، إن عمره مئتا سنة وقد أحضرته معى تذكاراً لرحلتى إلى اسبانيا ، ولكن دعنا من هذا وخذ مجلساً » .

فجلسا إلى جانب المنضدة وكانت مغطاة بقماش أحمر مثل سائر الحجرة ، ووضع الشيخ المسن عليها شيئاً ملففاً بدقة ولباقة ، ثم استرسل يقول « رفقاً بشبابك الغض ، وعدتك أخيراً بأن أستطلع لك الغيب لأنبئك هل تطالعك السعادة أو لا ، وسأقوم الآن بإنجاز هذا الوعد وإن كنت أنت قد تظن الأمر هزلاً ، ولا يلزم بك الخوف لأن ما أحاوله سيقع بدون خطر مرعب

أو عزائم مخيفة أو أشباح رهيبة تزعج مشاعرك وتقلق حواسك ، والعمل
الذى نحن بصدده لا يؤتى إلا من ناحيتين وهما إما أنك كاذب فى حبك
وفى هذه الحالة لا يجدى العمل ولا يثمر إذ لا شىء يكشف لى سره ويزيل
الستار عن خبيثته ، وإما أنك تكدر سكون الوحى وتفسده بأسئلة لافائدة
منها أو بحركة عجلى أو بترك مكانك وتبديدك الصورة ، فعذنى الآن بأن
تلتزم الهدوء وتحفظ برباطة الجأش »

فوعده فرديناند بذلك وأخرج الشيخ المسن الربطة التى كانت فوق
المنضدة من لفائفها ، وكان فى داخلها كأس ذهبية جميلة الشكل دقيقة
الصنع ، وكان حول قاعدتها الواسعة طاقة من الزهر يتخللها الآس وأوراق
نباتات أخرى وفواكه بديعة الحفر دقيقة الصنع مغشاة بذهب شديد اللمعان
وآخر قليل التالىق ، وكان حول منتصف الكأس منطقة ثمينة عليها صور
أطفال وحيوانات صغيرة متوحشة تلعب معهم أو تفر من بين أيديهم ،
ثم أديرت الكأس برشاقة وخفة فالت أعاليها كأنها تنهيا لملاقاة الشفاه ،
وكان الذهب يتوهج داخلها ويلتمع ، ووضع البرت الكأس بينه وبين
الشاب ، وأشار إليه بالاقتراب منه ثم قال له « ألا تشعر بشىء عند ماتفرق
الحاظك فى سنا الكأس ؟

فقال فرديناند « نعم فان هذا الضوء يشرق فى أقصى أعماق قلبى
وأستطيع أن أقول إنى أبدأ أشعر به كقبلة فى صدرى الحران المشوق »
فقال البرت « هذا حق فلا تحرك الآن عينك عنه ، وصوبها نحوه

واجعل لمعان الذهب قيد عينك وفكر جهدك في المرأة التي يهواها قلبك »
 وجلس الاثنان صامتين وكلاهما يرمق باهتمام الكأس اللامعة ، وكان
 البرت قد بدأ قبل ذلك بدقائق يدوم بأصبعه الممتدة في دائرة مستديرة
 حول لمعان الكأس وقد بدأ ذلك التدويم بإشارات صامتة في بطاء وتريث
 ثم ازدادت سرعتها حتى صارت في النهاية جد سريعة ، ثم توقف وابتدأ
 يصنع الدورات نفسها في الناحية المقابلة ، وبعد انتهاء هذا بدقائق جال بظنه
 أنه يسمع عزف موسيقى مقبلة من الخارج من شارع بعيد ، ولكن النغمات
 كانت تقترب مرتعشة في الهواء ، وأخيراً صار لا يخالجه الشك في أن هذه
 النغمات منبعثة من أعماق الكأس ، وازدادت صدحاتها قوة ، وكانت لها
 قوة تضرب في أعشار القلوب تركت قلبه رجافاً نباضاً على أنغامها المصبوقة
 المتدفقة ، وكانت الدموع تنهل من مآقيه وتتفجر في عينه ، وكانت يد البرت
 الحاذقة الصناع تتجه في خطوط مختلفة حول فوهة الكأس ، وكان يظهر
 كأن شرراً يتطاير بين أصابعه وكأن ذلك الشرر ينقض من طرق متشعبة
 إلى الذهب وكان يسمع له طنين عند ما يتلاقيان ، وكانت النقاط اللامعة
 تتسكاث وتتابع حركات أصبعه إلى الأمام وإلى الخلف ، وكانت تشع منها
 أنوار مختلفة الألوان ، وكانت تزدحم وتلتئم حتى اجتمعت في خطوط غير
 منكسرة ، وقد ظهر الآن أن البرت كان وهو في الناحية الحمراء الداكنة
 يلقي شبكة غريبة فوق الذهب المتوهج لأنه كان يجر حزم الضوء إلى هذه
 الناحية أو تلك كما يتراءى له ، وكان يلمح بها نحو فوهة الكأس ، وكانت
 طبيعته وتثبت في موضعها كغطاء يروح ويحيى ويقبل ويدبر وينتثر

وينتظم وينفصل ويتصل ولما أثبت شعب الضوء في هذا الوضع أخذ يوضح
الدائرة حول حافة الكأس فتباعدت الموسيقى وصارت تضعف شيئاً فشيئاً
حتى غابت آثارها ، ولما كانت النغمات تولى ذاهبة كانت الشبكة الملتهبة
بالشرر تهتز إلى الأمام والخلف كأنها تنزى من الألم ، وبينما هي تزداد
اضطراباً إذ تبددت إلى قطع ، وصارت خيوط الضوء تهمر انهمار الغيث
في الكأس ، وحين كانت هذه القطرات تتساقط ارتفعت منها سحابة حمراء
كانت تتحرك حركة داخلية في دوامات عدة ، وكانت هذه الدوامات
تطفو فوق حافة الكأس كالرغوة ، ثم برزت نقطة مشرقة لامعة بسرعة
ملحوظة من هذه الدائرة السحابية وأخذ يتكون حولها شبح حبيبته ،
وظهر فجأة من فتق البخار شكل العين وأقبلت غداً الشعر تتثنى ثم أخذ
يتمشى إحرار رقيق في أنحاء الشبح ورأى فرديناند محيا حبيبته المشرق
البسام وعينيها الزرقاوين وخدها الأسيل وفمها المتورد الجميل ، وكان رأسها
يميل إلى الأمام وإلى الخلف ، ثم أخذ يبدو أكثر جلاءً فوق جيدها
الأهيف الوضىء ويومئ إلى الشاب المأخوذ من الدهشة والفرح ، وكان
البرت مقبلاً على إقامة الدوائر حول الكأس حتى برز عطاها ، وأخذت
الصورة تستم تركيبها وتستوفي أجزاءها ، وكانت تنحنى في رشاقة مستحبة ،
ثم أخذ يظهر الصدر الناعم المقوس وعلى النهدين البارزين وردتان جميلتان
لها حمرة سرية مستعذبة ، ولما مالت نحوه الصورة المحبوبة وكادت تلمسه
شفتاها الملتهبتان نسي من فرط السرور وعده وغاب عن رشده ونهض

من مقعده وانحنى على ذلك الفم الياقوتى وقبله وحاول أن يقبض على الساعدين
الجميلين وأن يستنقذ تلك الصورة الآسرة للروح السالبة للعقل من سجنها
الذهبي ، ففي التو واللحظة اضطربت الصورة اضطرابا شديداً وانفصل
الرأس عن الجسم وتبددا في خطوط كثيرة العدد ، وكانت هناك وردة ملقاة
في أسفل الكأس تتمثل في حمرتها ابتسامة عذبة ، فتناولها فرديناند في
لهفة والتياح وضما لشفته فذبلت من حرارة أشواقه وآضت هواء

فقال له البرت بصوت المغيظ الحقق « إنك لم تف بوعدك ونفسك
فقطعهما لوماً ، ثم لف الكأس كما كانت وأزاح الستائر وفتح النافذة فدخل
منها ضوء النهار ، ثم خرج فرديناند كاسف البال حزينا بعد أن حاول
عشاً إرضاء البرت ، وكان البرت لا يزال متقد الغضب

وهرول في شوارع المدينة وهو شارد الخاطر مضطرب الفكر وأفضى به
التسيار إلى أحد أبوابها فجلس خارج الباب في ظلال الأشجار ، وكانت
أخبرته في الصباح أنها ذاهبة في المساء مع جماعة من أقاربها إلى الضواحي ،
ولما أسكره الحب استوى قائماً وجاس خلال الغابات ، وكانت صورتها
المأنوسة ماثلة لعينه بينا هي تطفو وترسب في هب من الذهب ، وكان
ينتظر ظهورها للقاءه في رونق بهائها ، ولكن سرعان ما كانت تتفرق أجزاء
تلك الصورة البديعة وتتبدد ، ولم يكن راضياً عن نفسه لأن هواه غير
المستقر وضجة مشاعره واهتياج حواسه بددت نظام الصورة وربما قضت
على آماله وفرقت شمل سعادته إلى الأبد

ولما صار الطريق بعد الظهر مزدحماً غاصاً بالناس انسل إلى الأدغال ،
ولكنه كان لا يزال يرمق جانب الطريق البعيد ، فكانت كل عربة تمر
من الباب تلمحها عينه

وأقبل الليل وكانت الشمس المائلة للغروب تلقى أشعتها الحمراء الباهرة
حين خرجت من الباب عربة مطهمة كانت تسطع أضواؤها المتوقدة في
وهج المساء ، نخب إليها ، وكانت عينها قد لحته ، وحنّت صدرها للماع
الزاهي من النافذة في رفق وابتسام ، وتقبل تحيتها الرقيقة وإشارتها الخفية ،
وكان واقفاً إلى جانب العربة فأنهلت عليه نظرتها ولما تراجعت لتبتعد
سقطت الوردة التي كانت تزين صدرها عند قدمه ، فالتقطها وقبلها ،
واختلج في نفسه أن تلك الوردة تقول إنه لن يرى حبيبته مرة أخرى ،
وإن غدير مسراته قد جفت فلن يعود لها تدفق ومسيل وأن نجم سعادته
قد غاله من بعد البزوغ الأفول ، وأن زهرة حياته ستلجج من بعد النضرة
في الذبول

(الفصل الثاني)

كانت الخطوات الحثيثة تمر فوق درج السلم في صعود وهبوط ، وكان
المنزل جميعه في هرج وجلبة وحركة ، وكان سكانه يتأهبون لحفلات الغد ،
وكانت ربة الدار أكثرهم فرحاً وأشدّهم إقبالاً على العمل ، وكانت العروس
قد نفقت يدها من العمل ولزمت حجرتها لترسل الفكر في مصير حياتها ،

وكانت الأسرة تنتظر ابنها البكر وزوجته — وكان ضابطاً في الجيش —
والأختين الكبيرتين وزوجيهما ، وكان ليوبولد — الابن الأصغر —
يفتن في الحبث لإكثار الفوضى وتعميمها وإطالة المهرج والجلبة ، وكان
يعرقل أعمال الجميع ويفسد مساعيهم بدعوى أنه يعاونهم على التنظيم
والتنسيق ، وكانت أخته « اجاثا » التي لم تتزوج بعد تحاول عبثاً رده إلى
عقله ، وإقناعه بأن لا يصنع شيئاً ، وأن يترك الآخرين في سلام ، ولكن
والدتها قالت لها « دعيه وسخافاته ، لأن كثيرها أو قليلها لا يعد اليوم
شيئاً مذكوراً ، وإني أطلب إليكم جميعاً أمراً واحداً ، وهو أن تقدروا
تكاثر الأشغال على في هذا اليوم فلا تعملوا على إزعاجي بأبناء جديدة إلا
إذا كانت عن أمر كبير الأهمية خطير الشأن ، فإذا كسر أحد صحناً أو نقص
معلقتان ، أو هم أحد الخدم الأجانب بتحطيم النوافذ فاني لا أعبا فتيلة
بأمثال هذه الحوادث ، ومن أجل ذلك أرجوكم أن تريحوا أذني اليوم
من سماع أمثالها ، ومتى انتهت هذه الأيام الصاخبة عاودنا النظر في أمثال
هذه الحوادث »

فقال لها ولدها ليوبولد « لله درك يا والدتي ، إن هذه المشاعر جديرة بربة
منزل مثلك ، فإذا دقت إحدى الخادومات عنقها ، أو أثر السكر في الطاهي
فحرق المطبخ ، أو أراق الساق النبيذ على الأرض لفرط سروره أو شربه
فإن مثل هذه الحوادث التافهة سوف لا تبلغك ، ولكن إذا كان هناك
زلزال يهدم المنزل ، فإنه ليس من الميسور أن يبقى هذا الخبر سراً مكتوماً »

فقالت الوالدة « متى يتخلى عن سخفه وهرائه ؟ وماذا يقول أختاك عندما يجدانك في مثل هذه الحالة من الميل إلى المرح واللعب والمشاغبة كعهدهما بك منذ عامين ؟ »

فقال ليو بولد إنهما سيمتدحان ثبات أخلاقى ولا يقولان أنى إنسان سريع التحول كثير التلون مثلهما أو مثل زوجيهما اللذين تغيرا تغيراً كبيراً فى هذه السنوات القلائل

ثم دخل العروس وسأل عن عروسه ، فأرسلت إليها الخادمة لتدهوها ، ثم قال العروس « هل ذكر لك ليو بولد طلبى يا والدتى العزيزة ؟ » فقال ليو بولد : « نعم ذكرت لها طلبك بلا ريب ، ولكن الفوضى الضاربة حولنا لا تترك للإنسان منفسحاً ليفكر فكرة مقبولة »

ودخلت العروس وتبادل العروسان التحية فى سرور وابتهاج ، ثم قال العروس : « الطلب الذى أبغيه هو أنك لا تظنيها كبيرة إذا أنا أحضرت ضيفاً غريباً إلى منزلكم الذى قد ازدحم بالضيوف الآن »

فقالت الوالدة : « أنت نفسك تعلم أن المنزل على اتساعه لا يتيسر أن أجد فيه الآن غرفة أخرى خالية »

فقال ليو بولد : « لقد سبقتكما إلى تسوية هذه المسألة وقد أعددت غرفة المخدع الكبير له »

فقالت الوالدة : « ولم ذلك ؟ إنها مكان بغيض وقد مضت سنوات وهى مستودع للأخشاب »

فقال ليوبولد : « ولكنها الآن مرتبة ترتيباً بديعاً ، وصديقنا الذى أعددناها له لا يعير أمثال هذه الأمور التفاتاً ، وهو لا يبغى منا سوى حبنا وهو أعزب يهوى الانفراد والعزلة وإنها المكان الذى يلائمه وقد لقينا مشقة فى حمله على الجحى وحشه على الظهور ثانية بين إخوانه البشر »

فقلت أجبائاً : « لا أظنه صديقك المظلم الناحية الساحر صانع الذهب » فقال العروس : « هو بعينه إذا كنت تصرين على منحه هذه الألقاب » فقلت أجبائاً : « لا تسمحى له إذن يا والدتى بدخول منزلنا ، وماذا نصنع برجل مثل هذا ؟ ولقد رأيته مرة فى الطريق مع ليوبولد فاحتوانى الخوف منه ، وهذا المذنب الطاعن فى السن لا يذهب إلى الكنيسة ولا يحب الله ولا الإنسان ، وقد يصيبنا شر من وراء حضور أمثاله من الكفار مثل هذا الحفل ، ومن ذا يعلم ماذا عسى أن تكون العاقبة ؟

فقال لها ليوبولد غاضباً : « إنك تحكمين عليه بذلك لجهلك أمره ولأن سحبة أنفه لا تروقك ، وتظنينه ساحراً من خدام الشيطان لأن ظلال الشباب قد تحسّرت عنه وروعة الصبي فارقت »

فقال العروس : « أفسحى يا والدتى العريزة مكاناً لهذا الصديق المسن فى منزلك ودعيه يقاسمنا أفراحنا ومسرراتنا ، وهو ياعزيزتى أجبائاً قد قاسى طويلاً من عنت الهموم وطالت معالجته للأحزان ، وقد جعلته الهموم التوالى قليل الثقة بالناس كارهاً لهم ، وهو يتجنب الجماعات ويؤثر العزلة ، وصديقه الاثنان هما ليوبولد وأنا ، وإني مدين له كثيراً ، فهو الذى وجه ميولى وجهة صالحة ، وجعلنى جديراً بحب جوليا

فقال ليو بولد « وهو يعيرنى كتبه ، ولا يبخل على بمخطوطاته ، ولا
يضن على بنقوده عند سماع كلمة واحدة منى ، وهو رجل سمح الأخلاق
كريم النزعة ، ولعلك يا أختى عند ما تنظرينه عن قرب وتعرفين سجاياه
يزول من نفسك الإعراض عنه والتبرم بما يبدو لك من جهامة منظره »
فقالت الوالدة « لا أرى بأساً فى إحضاره هنا ، وقد سمعت عنه كثيراً
من ليو بولد حتى لقد استشرفت إلى لقائه وتطلعت إلى الوقوف على حقيقة
أمره ، ولكن لا يمكننى أن أقيمه فى مكان أليق من الخدع المذكور »
وفى اللحظة نفسها أعلن نبأ قدوم أضياف ، وكانوا من أفراد الأسرة
وهم الأختان المتزوجتان وأخوها الضابط ، وكان معهم أولادهم ، وسرت
الوالدة لرؤية أحفادها وشمل السرور الحاضرين جميعهم وتجاذبوا أطراف
أحاديث شائقة مسلية ، واشترك العروس وليو بولد فى تحية القادمين ثم
توجها بعد التحية ليبحثا عن منزل صديقهما الشيخ الهرم الحزين ، وكان
يقيم أكثر أيام السنة فى الضواحي على مسافة فرسخ من المدينة ، ولكن
كان له منزل مخفوف بحديقة على كشب من باب المدينة ، وهناك جمعتما
به المصادفة ، وقد وجداه فى مقهى كانا قد اتفقا معه من قبل على اللقاء به
ولما حان المساء أتيا به إلى المنزل بعد حديث قصير

وتلقته الوالدة بالبشر والحفاوة ، ووقفت البنات بعيدات عنه ، وكانت
أجاثا خجلة وقد تجنببت نظراته ، وما كادت تنتهى أحاديث الاستقبال
والترحيب حتى أقبلت العروس فاستقرت عليها عينه ووضعت على وجهه

آيات التأثر الشديد ولوحظ أنه يبذل قصارى جهده ليجلس قطرة من الدموع منحدره من عينه وقد سر العروس لسروره ، وحدث بعد ذلك وهما واقفان إلى جانب النافذة أن أخذ بيده وقال له « ما قولك الآن في جوليا الجميلة الحسناء ؟ أليست هي ملكة من السماء ؟ »

فقال الرجل المسن والانفعال باد عليه « إنى لم أرى صديقى أروع من هذا الجمال البارع الفتان ، وإنى أقول إنها قد بلغت من القسامة والحسن إلى حد أنه يمثل إلى أنى عرفتها من أزمان تصرمت ، وهى وإن كانت غريبة عنى فإن صورتها كانت دائماً صوب عيني ولم تبرح مخيلتى »

فقال له الشاب « إنى أفهم مغزى حديثك ، فإن الشئ الصادق الحسن الجليل الفخم عندما يغمر مشاعرنا ويبهز حواسنا يكون على رغم ذلك غير مستغرب فى عيوننا ولا يبد لنا كشئ لم نسمع به ولم ننظره ، والأمر على نقيض ذلك فإن طبيعتنا الخفية المستسرة تنجذب عنها الاستار فى مثل هذه اللحظات وتبدى جليلة مسفرة ، وتستيقظ أعماق ذكرياتنا وتنتبه أعز مشاعرنا وتعاودها النظارة والفتوة »

ولم يشترك الغريب فى الحديث أثناء تناولهم العشاء ، وكانت نظراته موجهة إلى العروس فى لهف واهتمام حتى أربكها بنظراته وأخافها ، وروى الضابط حوادث غزوة كان من أبطالها ، وأفاض التاجر الثرى فى ذكر المضاربات والأيام السيئة ، وأخذ المزارع يتكلم عن الإصلاحات التى يزمع إدخالها فى ضيعته .

ولما انتهى العشاء استأذن العروس وعاد للمرة الأخيرة إلى غرفته المنعزلة لأن الاتفاق كان قد تم على أن يقيم الزوجان في منزل الوالدة ، وأعدت لها الحجرات المناسبة ، وانفرط عقد الجماعة ، وقاد ليوبولد الغريب إلى غرفته ، وقال له وهما سائران : « رجائي أن تسامحنا لاضطرارنا إلى أن نقيمك في مكان بعيد ، أسباب الراحة فيه غير متوفرة ، ولكنك قد رأيت بعينك كثرة أفراد أسرتنا ، وسيحضر فريق منهم غداً ، واعلم أنه ليس في وسعك الآن أن تفر من يدنا لأنك لا تدري طريقك في هذا المنزل الواسع الرحيب »

واجتازا ممرات كثيرة ، واستأذن في النهاية ليوبولد صديقه وحياه وانصرف ، ووضع الخادم شمعتين على المنضدة ، وسأل الغريب هل يسمح له بمساعدته في خلع ملابسه ، ولما أعفاه من ذلك ذهب لسبيله ، وخلا إذ ذاك الغريب بنفسه .

فأخذ يذهب ويحجى في الغرفة وهو يقول لنفسه « كيف انبعثت من قلبي اليوم صورتها وأخمة جليلة ؟ ولقد نسيت الماضي البعيد وختلتها أمام عيني ولقد عدت إلى الشباب ، وكان صوتها في أذني حلو الرنين كما أعهده ، ولقد حسبتني أستفيق من حلم ثقيل ولكن لا ، لقد صحت من رقدتي وتلك الملاحظات الهائلة لم تكن سوى وهم جميل »

وكان من احتياج الخاطر واضطراب النفس بحيث لم يجد النوم السبيل إلى جفنيه ، وأخذ ينظر إلى بعض الصور المعلقة على الحوائط ، ثم أجال نظره في الغرفة ، ثم قال « إني قد ألفت من قبل كل ما حولي وإني

لأستطيع أن أتصور أنى قد عرفت هذه الدار من أزمان بعيدة » وأخذ يستجمع ذكرياته ، وتناول بعض الكتب الضخمة التى كانت فى أحد أركان الغرفة ، ولما قلب صفحاتها هز رأسه ، وكان معلقاً على الحائط غطاء عود ، ولما كشف الغطاء وجد آلة قديمة عجيبية قد أخلق الزمن جدتها وليس بها أوتار ، فقال متعجباً لست مخطئاً ، وهذا العود ممتاز الصنع ، وهو العود الاسبانى عود صديقى ألبرت المسن الذى طواه الموت منذ زمن طويل ، وهذه كتب السحر ، وتلك هى الغرفة التى أطلعنى فيها على الرؤية المباركة السعيدة ، وقد فصل لون القماش المزركش الذى كان يغطى الجدران ، ولكن كل ما يتعلق بتلك الساعات ما زال فى نفسى شديد الوضوح قوى الأثر ، وقد كان ذلك باعث ما غشبنى من الخوف وأنا قادم إلى هذا المكان من تلك الممرات الطويلة المتداخلة التى قادنى فيها ليو بولد ، فيا لله ! ها هنا على نفس تلك المنضدة انتعشت الصورة وتفتحت وبسقت كأنما قد روتها وأنعشتها حمرة الذهب ، وها هنا ابتسمت لى الصورة التى كادت تطير بلبى هذه الليلة ونحن فى قاعة الاستقبال ، تلك القاعة التى طالما مشيت بها متحدثاً مع صديقى ألبرت أحاديث الثقة والود »

تم خلع ملابسه ولم ينم إلا حثاً ، واستيقظ عند ما ضرب الفجر بعموده وفتح النافذة ، وكانت الحقائق والمباني كما كانتا إذ برد شبابه قشيب ، وظهرت منازل أخرى جديدة بنيت فى خلال تلك الفترة الطويلة ، فقال وقد تصعدت زفراته « لقد مرت أربعمائة عاماً على ذلك المساء ، ولقد عشت

في كل يوم من تلك الأيام المشرقات حياة ممتلئة حافلة أكثر وأطول مما عشته في الفترة الطويلة الممتدة بيني وبينها »

ثم دعاه أفراد الأسرة إلى اجتماع عقدوه ؛ وقضى فترة الصباح في أحاديث مختلفة معهم ، وأخيراً أقبلت العروس في زيتها وبهائها فلما لحظها ظهر عليه تأثر شديد شاهده الحاضرون ، وذهبوا إلى الكنيسة جميعاً وتمت هناك حفلة الزواج ، ولما عادوا إلى المنزل قال ليوبولد لأمه « ماذا تقولين يا أماه في صديقنا الكهل العبوس الطيب السريرة ؟ ؟

فقلت « لقد ظننت أن صورته أشد إثارة للقلق والخوف مما رأيت ، وهو رجل رقيق الحاشية جم العطف وقد نجد منه صديقاً ناصح الجيب وافر الإخلاص »

فقلت أحياناً « أتؤمنين الإخلاص في صاحب تلك النظرات الرهيبة المتهبة وهذا الوجه الممتلئ بالتجمعات وهذا الثغر الأصفر الغائر وهذه الضحكة الغريبة التي ترن في سخرية واستهزاء ؟ لا ، وقاني الله شر أمثاله من الأصدقاء ، إن الأرواح الشريرة إذا تبدت في صورة بشرية فلا ريب أنها تظهر في مثل صورته »

فقلت والدتها « إنني أظنه أقل سناً وأكثر حسناً ، وليست صورته كما تصفين ، ومن السهل أن يلحظ الإنسان أنه حاد الطبع ، وأنه قد راض نفسه على كتمان مشاعره وربما يكون قد لاقى من أبكار الخطوب الفواجع ونوازل الهموم الصوادع ما تركه قليل الثقة بالناس وأفقده صراحته البسيطة وهي في العادة نصيب السعيد »

ثم دخل بقية أفراد الأسرة فوقف مجرى الحديث ، وأحضر العشاء ، وجلس الغريب بين أجبائا والتاجر الثرى ، ولما ابتدأ شرب الأناخب صاح ليوبولد قائلاً انتظروا قليلاً يا أصدقائى المبجلين فإنى سأحضر الكأس الذهبية لأديرها على الحاضرين ، وهم بترك مكانه ، ولكن والدته أشارت إليه أن يظل مكانه وقالت « لا يمكنك أن تعرف موضعها لأنى حفظتها فى مكان خاص ثم انفلتت لإحضار الكأس

فقال التاجر « إنها خفيفة الحركة فانظر كيف تسير فى رشاقة ، وقد أربى عمرها على الستين ولكنها دائماً باسمه الوجه كثيرة البشر والإيناس ، وهى موفورة السرور فى هذا اليوم خاصة لأنها ترى نفسها قد عادت إلى رونق الشباب فى جوليا »

فوافقته على ذلك الضيف الغريب ، وعادت السيدة وفى يدها الكأس وكانت ملأى بالنبيذ ثم أديرت عليهم فكان كل منهم يشرب نخب أعز الناس عليه وأحبهم إليه ، فجوليا شربت نخب زوجها وهو شرب نخب حبيبته جوليا ، واقتدى بهم الآخرون عند ما أفضت إليهم الكأس ، ولكن الوالدة أبطأت وترددت عند ما وصلتها الكأس

فقال لها ولدها الضابط فى سرعة وخشونة « أسرعى وأديرى الكأس ، وإننا نعرف رأيك فى أن الرجال جميعهم خونة ولا عهد لهم وأنه ليس بينهم من هو جدير بحب امرأة ، قولى لنا إذن من أعز الناس عليك ؟ »

فنظرت إليه والدته وقد اختفت من وجهها علام السرور وعلته لمحات الكدر وقالت « : إن ابنى من أعرف الناس بأخلاقى ، وقد أصدر حكمه

القاسى على ما يدور بفكرى ، فاسمحو الى أن أكتم عنكم ما جال ببالى وأرجو أن يظل ولدى صادقاً فى حبه حافظاً لعده حتى يظهر بطلان اعتقادى وفساد فكرتى » ، ورفعت الكأس دون أن تشرب ، وعرت الحضور من ذلك حيرة وشيء من الارتباك

فالتفت التاجر إلى الغريب وقال له همساً « يروى عنها أنها كانت لا تحب زوجها ، وكانت أحبت رجلاً آخر ولكنه نكث عهده ولم يستمسك بموثقه ، ولقد كانت فى صباها أجمل فتيات المدينة »

ولما وصلت الكأس إلى فرديناند أخذ يحدق فيها وقد تملكته الدهشة لأنها كانت الكأس التى أخرج منها البرت المسن الشبح الجميل ، ثم أخذ ينظر إلى ذهبها وإلى تماوج النبيذ فيها وارتعشت يده وصار يظن أنه ليس من المستحيل أن تخرج من تلك الكأس المسحورة الصورة التى يعرفها وتجلب معها الشباب الراحل والعيش الزائل ثم قال بصوت مسموع « هل الذى يلمع فى داخل الكأس نبيذ ؟ »

فقال التاجر ضاحكاً « نعم أو كنت تظنه شيئاً آخر ؟ اشرب واستمتع » فسرت رعدة من الخوف فى أضلاع الرجل المسن وهتف باسم فرانشسكا فى صوت عال مرتجف ووضع الكأس على فمه ، فرمته الوالدة بنظرة دهشة واستفسار

ثم قال فرديناند وقد استحميا من حيرته وارتباكهما « من أين استحضرت هذه الكأس ؟ » فقال ليوبولد « منذ سنين طويلة وقبل أن أولد ، وقد اشتراها والدى وسائر المنزل وأثاثه من رجل طاعن فى السن أعزب كان

دائم العزلة والصمت وكان جيرانه يظنونه ساحراً ولم يقل الغريب إنه كان يعرف هذا الرجل المسن لأنه كان في حيرة وخبال

ثم رفع الطعام ، وذهب الصغار ليستعدوا للرقص ، وخلا فرديناند بالوالدة ، فقالت له ادن مني فإن سنوات رقصنا قد مضت ، وإذا كنت لا ترى في سؤالى نكراً فاسمح لي أن أسألك هل أبصرت كأسنا مرة أخرى قبل اليوم ؟ وما الذي سبب لك كل هذه الأزمات النفسية والثورات الداخلية ؟

فقال لها إني أسألك الصفح يا سيدتي لما بدا على من آثار الانفعالات ، ومنذ دخولي منزلكم شعرت بأني غبت عن نفسي ، ونسيت أن شعر رأسي قد اشتعل شيباً ، وأن القلوب التي كانت تنبض بحبي قد أسكتها الموت ، وابنتك الجميلة التي تحتفل اليوم بأسعد أيام حياتها تشبه حسناء عرفتها وتعلقت بها في أيامي الماضيات وغصن الشباب نضير ، بل لا أقول إنها تشبهها وإنما أقول إنها هي نفسها ، وإني لأحسب ذلك معجزة من المعجزات ، وقد اختلفت إلى هذا المنزل قبل اليوم ، وعرفت تلك الكأس في حادثة لا تزال منقوشة في ذاكرتي ، وإنه ليعز على يد الأيام أن تمحوها منها ، وهنا أخبرها بقصته وقال في ختامها « وفي مساء ذلك اليوم نظرت وأنا في الحديقة حبيبتى آخر نظرة والعربة تسير بها ، وقد سقطت من صدرها وردة فالتقطتها ، وافتقدتها بعد ذلك لأنها لم تحفظ عهدى وتزوجت »

فقلت السيدة وقد ثارت سواكن نفسها وبلغ منها التأثر « يا لله
أست فرديناند ؟ »

فأجاب « إنه اسمي يا سيدتي »

فقلت السيدة أنا « فرانثيسكا »

فنهضا وتقاربا ليعتنقا ولكنهما تراجعاً بغتة ، وأخذ كل منهما يحدق
في الآخر فاحصاً مدققا وكانا يبذلان الجهد ليجمعا من أطلال الزمن تلك
الصورة التي كان كل منهما يعرفها في الآخر ، وكما توجد لحظات في الليالي
العاصفة الكدراء الممتلئة بالزوابع والأعاصير وسود السحب تومض خلالها
النجوم اللامعات خلصة ثم تختفي فكذلك كانت تنبعث لعينيهما الملامح
الزائلة من الحواجب والعيون والشفاه ، وكانا كأنهما يريان شبابهما واقفا
على كثر منهما بين الدموع والبسات ، وانحنى فرديناند وقبل يدها
وتساقطت من عينه دموعتان كبيرتان ، ثم تعانقا عنقا قلبيا مخلصاً

ثم سأله « هل توفيت زوجتك ؟ »

فقال متنهداً « إني لم أتخذ لي زوجة طوال حياتي

فقلت وهي تضرب كفها « إذن أنا التي خنت عهدك - ولكن لا إني
لم أكن خائنة ، فعند عودتي من الريف حيث قضيت شهرين سمعت
من جميع أصدقائك وأصدقائي أنك عدت إلى بلدك وتزوجت هناك ،
وأطلعوني على رسائل منك تؤكد ذلك ، وكانوا يستفيدون من يأسى
وحيرتي وغضبي ، ولهذا رضيت الزواج من آخر وكان زوجا جديراً مني
بذلك ، ولكن أفكاري وقلبي كانا دائماً في حوزتك »

فقال فرديناند « إني لم أبرح هذا البلد ، ولكنني سمعت بعد مضي زمن
أنك تزوجت ، ولقد أرادوا أن يفرقوا بيننا وقد تم لهم ذلك ، ولقد صر
والدة سعيدة ، وأنا أعيش في الماضي وسأحب أولادك كأنهم أولادي .
ولكن العجيب أننا لم نلتق مرة قبل ذلك ! »

ف قالت « لقد كان خروجي من المنزل نادراً ، وقد تغير اسم زوجي بعد
زواجنا بقليل لأنه استحق ميراثا ، وبذلك كنت لا تستطيع أن تعرف
أننا جد قريبين منك »

فقال فرديناند « لقد كنت أتخاشى الناس ، وعشت للوحدة ، وليو بولد
هو الشخص الوحيد الذي استرعى انتباهي وحبب إلي الخروج والاحتلاط
بالناس ، فما أشبه افتراقنا ولقائنا بقصة رهيبة من قصص الجان ! »

ولما عاد الشبان والشابات كانا يبكيان ، وهما في تأثر شديد ، ولم يقل
أحدهما شيئاً عما حدث ، فقد كان السر جليلاً مقدساً ، وبعد ذلك كان
الرجل الهرم صديق الأسرة وقد التقيا في شكل غريب ليرتبطا فترة قصيرة
ربطة لا تفصم عروتها ولا تحل عقدتها ولم يفرق بينهما إلا محتوم الموت .



أرهم، علي، متره

DEC 18

الخطايا السبعه

4583

13. 7. 78

NOV

~~5-7 NOV 88~~

~~19 - Feb 72~~

~~27 JUL 1973~~

~~J. Lib.~~

~~22 AUG 1983~~

JAFET LIB.

~~1 FEB 1979~~

808.83.A23

الشم، علي

الخطايا السبع

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030483

